

[](http://www.alukah.net/)

**الإقناع الوعظي بالبعث في سورة ق**

أبو عبد المؤمن أحمد مصطفى

**الإقناع الوعظي بالبعث في سورة ق**

اشتهرت سورة (ق) بأنها ترقق القلب لما بها من ذكر الموت والاتعاظ به، حيث كان النبي يعظ بها في خطبة الجمعة، فعن بنت لحارثة بن النعمان قالت: ما حفظت ( ق ) إلا من فيِّ رسول الله يخطب بها كل جمعة [[1]](#footnote-1)، قال العلماء سبب اختيار سورة (ق) أنها مشتملة على البعث والموت والمواعظ الشديدة والزواجر الأكيدة [[2]](#footnote-2)، ولذلك يُنطق هذا الحرف بمد حرفي مخفف ستة حركات مما يوحي باليقظة و الاهتمام لما سوف يتلى من أمر خطير [[3]](#footnote-3)، وبهذا يتعلم المسلم العناية بالأداء قبل البدء بالوعظ، فليس الواعظ هو مجرد سراد للمواعظ أو القارئ للآيات والأحاديث أو من يحكي القصص، وإنما لابد تكون لديه قدرة تأثيرية تنبع من لسان يعكس بصدق ما يئن به قلبه وما يجول بخاطره وما يشعر به ضميره، وإلا فلن تكون للموعظة تأثير متى خرجت من لسان يتخذ من الوعظ وظيفة تعود عليه بالنفع المادي أو عادة تعودها لمكانته من قومه، فقد كان حال النبي حين يعظ قومه مؤثرا تأثيرا شديدا، يقول جابر بن عبد الله (وكان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه نذير جيش) [[4]](#footnote-4).

وقد سميت بحرف الهجاء (ق) وابتدأت بالقسم به وبالقرآن المجيد، وكلمة (القرآن) تبدأ أيضا بحرف القاف، وهو حرف يُعرف بأنه من أحرف التفخيم لا الترقيق ومخرجه من أقصى اللسان قريبا من الحلق بعيدا عن الفم، وكأنها تخرج من الحلقوم مثلما تخرج الروح، وقد توسط السورة ذكر الموت وخروج الروح، كما يتسم حرف القاف بالجهر لا الهمس، والشدة لا الرخوة، والانفتاح لا الإطباق، والإصمات ولا الإذلاق وهي كلها صفات للحرف تتناسب مع جو السورة الذي يغلب عليه الوعظ والتأثير العاطفي المصحوب بالخوف بما يؤدي إلى إيقاظ الإيمان في القلب، ولذلك اختمت السورة بقوله سبحانه (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآَنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) فهي تذكرة فيها شيء من الوعيد للانتباه والاستيقاظ والتهيئة لاستقبال الإيمان ونداء الرحمن.

ولقد تنوعت الموعظة في أكثر من تقسيم، حيث ابتدأت بالقسم بالقرآن المجيد للتأكيد على أنه الحق من الله، وأن ما يعجب منه الكافرون إنما هو الباطل، ولذلك دلل القرآن كعادته على معجزة القرآن الكريم - وهي معجزة معنوية تربوية تحمل البشرية على الهداية للحق – ثم الإشارة إلى معجزات الله تعالى الكونية من سماء وأرض وجبال ونبات ومطر وحب ونخل تمهيدا لأن يهتدي القلب البشري إلى الإيمان بالبعث وإحياء الناس من القبور بعد الموت، ثم الحساب والجزاء، كما حذرت من أن يكون مآل الناس كمآل أسلافهم من المكذبين من قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة من الهلاك لما أنكروا البعث وكذبوا به.

ويضرب المولى سبحانه المثال بخلق الإنسان مؤكدا علمه سبحانه بكل ما يجول في خاطره وما يدور بخلده وما يعتريه من هواجس، (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)، حيث أوكل به ملكان يحصيان عليه كل صغيرة أو كبيرة، وفجأة تأتيه لحظة الموت، تلك اللحظة التي كان يحيد عنها بفكره فينشغل بما هو فاني عما هو باقي، فمن مات قامت قيامته، ويأتيه عمله يسوقه إلى ربه، وتشهد عليه جوارحه بعدما شهد عليه قرينه من الملائكة، فينكشف عنه ما غاب عنه، ويبصر من أمور الغيب ما كان يؤمن به دون أن يراه - إن كان مؤمنا -، أو ما كان يكذب به من قبل - إن كان كافرا -، فيبدأ الحساب حيث يشهد عليه أول ما يشهد الملك الذي وكل به، وقد أحصى عليه كل شيء، وعده عدا ليصدر الحكم علي الأخير بالترك في جهنم بقدر ما كفر وعاند ومنع واعتدى وارتاب في أمر الآخرة، ومن ثم عبد غير الله تعالى، فيلقى في العذاب جزاء ذلك، وعندئذ ينطق الشيطان متبرأ من مصير من كفر من ابن آدم، ومؤكدا أن دوره كان يقتصر على تعريف ابن آدم طريق الضلال، وذلك في مقابل ذلك جهد الأنبياء لتعريفه بطريق الهدى والرشاد، بيد أن الجدال يحتدم بين هؤلاء الكفار والشياطين، فيحسمه المولى سبحانه بالتأكيد بأنه ليس بظلام للعبيد، فطالما كانت الدعوة من الشيطان بلا سيطرة على أتباعه وكانت الدعوة من أهل الحق بلا إجبار لأحد – كما أشارت بذلك آخر السورة – وكان الإنسان قد ملَّكه الله تعالى حرية الاختيار لأي من هذين الطريقين (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) فهو الذي يلفظ وقبل أن يلفظ كان عليه أن يراقب قوله ويعده قبل أن يُعد عليه، فإنه سبحانه القائل في كتابه (لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)، ثم ينتقل الخطاب الرباني لجهنم فيسألها هل امتلأت؟ فتقول هل من مزيد، كناية على كثرة من يعذب في النار يومئذ لاستحقاقه العذاب ولا ظلم اليوم، وفي المقابل تقترب الجنة من أهلها مبشرة لهم باقتراب النعيم فور الفراغ من الحساب، وما وعده الله لهم نظير خشيتهم للرحمن وإيمانهم بالغيب وما أضمروه في قلوبهم من الإنابة لله تعالى، (هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ )، فاليوم هم آمنون ولهم ما يشاءون.

وبعد هذا العرض الموجز لخلق الإنسان وقبض روحه وحسابه ومصيره تشرع السورة لتوجه خطابها إلى من لم يصر بعد إلى هذا المصير لتذكره بمهلك أسلافه من الأقوام السابقين الذين عرفوا بالبطش والقوة فلم يغن عنهم ذلك من بطش الله شيء، فذاك هو مصيرهم في دار الدنيا، وذلك هو ما سوف يُستقبل من مصيرهم في الدار الآخرة، (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ)، لتؤكد السورة أن المقصد من ذكر مصير هؤلاء في الدنيا، ومصيرهم في الآخرة ليس إلا التذكرة لمن لم يصر إلى مصيرهم بعد، مؤكدة أن تلك التذكرة لا يستقبلها إلا من لا يزال في قلبه فرصة للاتعاظ والاعتبار.

وتهدئ السورة من حالة الرهبة التي أصابت القارئ من تصوير مشاهد الفزع والخوف التي تَعرِض مصير الظالمين في الآخرة ومصيرهم في الدنيا، لتذكرنا مرة أخرى بمعجزة خلق الله تعالى للسماوات والأرض، (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ )، تمهيدا لاستقبال الأمر من الله تعالى بالصبر على جهل هؤلاء الظالمين، والتزام الذكر والتسبيح حتى يأتي يوم الصيحة بالحق، ذلك اليوم الذي تتشقق الأرض عنهم فيسيرون إلى محشرهم، ويحاسبهم الله تعالى على ما كانوا يقولون اعتقادا، (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ )، مؤكدة أن دور الدعاة إلى الله تعالى يقف عن مرحلة التذكير بالقرآن دون إجبار أحد على الإيمان،( وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ )، حتى لا يتصور أحد أن استخدام الدعاة لأسلوب الترهيب والإنذار الشديد هو وصاية على أحد، فليس ذلك إلا تذكرة ولم يتعد حد الوعظ والإرشاد، لتختتم الآيات بأن هذه التذكرة سوف تصل إلى من له قلب ومن يخاف وعيد ربه دون من خُتم قلبه بالكفر، (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآَنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ).

قوله سبحانه (ق وَالْقُرْآَنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ[[5]](#footnote-5) (5)

يقسم الله تعالى بكتابه، والذي صفته أنه كتاب مقروء، فالقرآن صفة مشتقة من القراءة، وهي صفة ملازمة له لا تنفك عنه، فلولا أن المؤمنين يقرؤونه لما سمى قرآنا، لذلك كانت قراءة القرآن عند الله عظيمة، ومن ثم أقسم بها في مبتدأ السورة، وقد سماه الله قرآنا وسماه تارة أخرى كتابا وفي ذلك إشارة إلى حفظه في صدور العلماء الذين يطنون به مثل النحل فضلا عن حفظه بين السطور حفظا في كتاب واحد يشهد العالم كله بصحته.

وقد وصف الله تعالى هذا الكتاب بصفة أخرى ألا وهي المجد، فهو مجيد يعني عالي الطبقة بين الكتب [[6]](#footnote-6)، بهذا يؤكد الله تعالى على أن لقراءة القرآن علو في المنزلة كما في الحديث عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله : (يقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقرأ [ وارق ] ورتل كما كنت ترتل في دار الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها ) [[7]](#footnote-7)، أما المقسم عليه في الآية فهو محذوف، وهو مضمون الكلام بعده من إثبات المعاد و تقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم يلتقي لفظا وهذا كثير في أقسام القرآن كما في سورة ص و غيرها [[8]](#footnote-8)، و بذلك يظهر الأسلوب القرآني الدعوي و الذي تميز بتأخير جواب القسم حتى يظل القارئ في شوق لمعرفته طوال السورة.

ثم تشرع السورة في مناقشة مسألة جدال الكفار في البعث وعجبهم من إرسال الرسل منذرين ومبشرين، فهذا هو مستهل عجبهم (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ )، بما يؤكد أن بشرية الأنبياء أثارت تعجبهم، وهو أمر مطلوب ليتتبعوا سيرته، فيحملهم هذا التعجب فيما بعد لأن يقتدوا به، إذ تشير الآيات إلى عجب الكفار ممن أرسل إليهم لينذرهم يوم البعث، فكان عجبهم أن الذي ينذرهم هو واحد منهم لا يفضلهم في شئ من مال أو جاه أو نسب، فكان ذلك عجب جميع من كذب بآيات الله تعالى ويستكبر أن يتبع الأنبياء و الصالحين، وفي ذلك إشارة إلى ضرورة أن يكون الداعية من بين القوم الذين يوجه إليهم دعوته، (مُنْذِرٌ مِنْهُمْ)، وذلك حتى لا ينال الاستغراب أو النقد والاستهجان بما يحملهم على عدم الانصياع له، والمقصود أن يحملهم ذلك التعجب على اتباعه لا إلى النفور منه، فكان الأيسر أن يدعو المسلم العربي غيره من العرب، ويدعو المسلم الأعجمي غيره من الأعاجم، فذلك أدعى إلى استيعاب الدعوة أيسر وأسرع، كما يراعى كذلك أن يكون الداعية في مهنة قومه وثقافتهم، فإن كانوا أميين فالداعية إن كان أميا أيسر، قال تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ) (الجمعة/3)، وإن كانوا مثقفين فالمثقف مثلهم أقرب، قال سبحانه (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) (إبراهيم/3).

ثم عجبوا تارة أخرى من أمر البعث (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) وهذا تعجب استنكاري هذه المرة، حيث يستبعدون أنهم بعد أن تتحلل أجسادهم و تصبح ترابا يرجعون مرة أخرى أحياء بعد البعث، وكم عجبوا من هذا الأمر وكم جادلوا وتهكموا وسخروا إذ لم يؤمنوا بما أخبر عنه القرآن من أن الحياة الدنيا لابد وأن يتبعها حياة أخرى في الدار الآخرة، و أن الأموات سوف يبعثون ويحيون من جديد، ولماذا يحدث ذلك؟، تلك أمور كفيلة بأن تغير مفهوم الإنسان عن الحياة وسعيه فيها لو أيقنها، فتلك الشبهة التي اعترت هؤلاء القوم يمكن إزالتها بشئ من التدبر والتفكر، فيؤكد سبحانه علمه بأنه على علم بحال الأرض حين تأكل أجسادهم و تبليها، تلك الحقيقة التي تعني سواسية بني آدم جميعهم في المصير، ولا فرق لغني عن فقير في السير إلى هذا المصير، أي أن هذه سنة لا تتغير و لا تتبدل و هي أن الأرض تأكل الأجساد دون تفرقة بينهم ومهما خلدوا في الدنيا فمصيرهم إلى الفناء.

فإن آمنوا بالفناء، فلا تزال تلك الشبهة عالقة في أذهانهم، إذ كيف يبعثون بعد الفناء، فيرد المولى سبحانه وتعالى على هذه الشبهة التي لا تزال هي سبب افتراقهم عن أهل الحق (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ)، فيثبت حقيقة علمية (قد علمنا) غابت عن البشر أزمنة كثيرة، وقد كشفها القرآن ليثبت صدقها علماء الاكتشافات الحديثة، انطلاقا من قول النبي (ص) ( لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى، إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ) [[9]](#footnote-9)، وعجب الذنب[[10]](#footnote-10) معروف وهو العظم في الأسفل بين الأليتين الهابط من الصلب يقال لطرفه العصعص، وظاهر هذا يدخله الخصوص من وجوه – لما ثبت من أن الأرض لا تأكد جسد الأنبياء - فكأنه قال كل من تأكله الأرض فإنه لا تأكل منه عجب الذنب[[11]](#footnote-11).

وقوله سبحانه ( وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ)، فكل شئ عند الله تعالى في كتاب محفوظ، وهو حافظ لأعمال ابن آدم فلا يعتريه النقص أو الزيادة، فلا عجب من قدرة الله تعالى، فالأمر لا يخرج عما قدره في اللوح المحفوظ.

وقوله سبحانه (بل كذبوا) للاستدراك، فالأمر لم يقف عند حد التعجب وحسب، وإنما صار بعد ذلك إلى إنكار وتكذيب، فبالرغم من الحقائق العلمية التي تشير إلى صدق احتمالية البعث، فإنهم يكذبون به، ذلك أن الكافر بالبعث لا يعمل لأجل الآخرة، ومن ثم لا ينتبه إلى ما يقول ولا يحرص على ما يفعل، وعليه فإنه لا يلزم نفسه بأي شيء من الآخلاق أو الآداب في المعاملات مع الناس، فضلا عن عدم احترامه للشعائر والعبادات والمعتقدات، فالإيمان بالبعث والحساب والجزاء هو مفرق الطريق بين فريقين لا تشابه بينهما بالمرة، ولذلك سمى المولى سبحانه الفريق الذي لا يؤمن بذلك بالمكذب، ذلك أنه لا يقف عند حد عدم الإيمان فحسب ولكنه لكي يتحلل من الالتزام بما تمليه عقيدة الإسلام، فإنه يكذب بها ويتهكم منها، أي يتخذ سياسة هجومية ضد أصحاب هذه الدعوة ومعتقدي هذا الدين، فمهما حاول أن يستر هجومه بإظهار عدم الإيمان بمعتقد الإسلام فإنه يكشف عن عناده وتكبره وتكذيبه للمؤمنين عن طريق تكذيب أصحاب الدعوة وأهل الحق (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ).

و العلاقة واضحة بين تكذيبهم بصدق النبوة وتكذيبهم بالبعث، فهم يتخذون من التشكيك في النبوة تكئة للتشكيك فيما جاء به النبي (ص) (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ)، كما صدهم عن الإيمان بالبعث حسدهم لنبي الله تعالى على نعمته التي أنعم الله تعالى بها عليه، قال سبحانه ( أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا) {النساء/54} كما فعل بعض بني إسرائيل مع نبي الله طالوت وكما يفعل المجرمون اليوم حين يتشككون في صدق أهل الحق ونيتهم في الإصلاح دون أن يستندوا في ذلك إلى أي دليل أو بينة.

والقرآن يكشف السبب الحقيقي لهذا التكذيب لأهل الحق، والاتهام الباطل، والإصرار على ستر الحقائق، رغم أن الحق من الوضوح والجلاء ما ينأى عن اللبس و الغموض أو التشكيك و التكذيب فيه، وهذا السبب يتضح من خلال طريقتهم لمحاربة أهل الحق وتكذيبهم لهم، حيث لا يستقرون على تهمة ولا يعيبون عليهم بشيء واحد، وإنما ينسبون إليهم المتناقضات، فتارة ينسبون الكتاب لأساطير الأولين، وتارة يقولون أنه ضرب من السحر، وتارة أخرى يتهمون النبي بالجنون،(فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)، فهم لا يستقرون على اتهام معين أهو مجنون أم ساحر أم ناقل لثقافات متنوعة من أمم شتى....؟ فإنهم لما كانوا في تخبط وتشتت وزيغ من أمرهم، كان مجادلتهم لن تكون منطقية، حيث أن المنطق يأبى أن تساق الحجج لاتهامات شتى وغير محددة.

قوله سبحانه (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ [[12]](#footnote-12) (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ [[13]](#footnote-13) وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [[14]](#footnote-14)(7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8)

لما كان المولى سبحانه قد وصفهم بالاختلاط والاضطراب في الأمر، فإنه سبحانه أراد أن يصرفنا عن مجادلتهم فيما لا طائل من ورائه، وحثنا على أن نقدم لهم العلاج الشافي مباشرة، والمولى سبحانه يريد منهم أن يتعجبوا من الأمر الذي يستحق العجب منه، فينقلهم للتفكر فيما خلق وأبدع وأحسن، فليتدبروا في خلق السماء، وهي فوق رؤوسهم، كيف أنه سبحانه وتعالى قد خلق هذا البناء المحكم، وحبكها و وزينها بالنجوم و الكواكب و أوسع في خلقها فهي بلا نقص أو عيب، (وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)، ولا تشققات فيها، إذ هي تحيط الكون بذراعيها من المشرق إلى المغرب، إنها لآية فسيحة تشرح النفس و تلقي إليها بالطمأنينة، وتبرهن للعقل أن عظمة خلق السماء أدعى لأن نكبر خالقها ونعظمه، فإذا ما آمن الإنسان بما رأته عينه من عظيم صنيع الله تعالى وبديع خلقه، فلماذا يعجب من مسألة البعث التي لا تقارن في الصعوبة بمسألة خلق السماء، يقول المولى سبحانه و تعالى (ءأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ) [[15]](#footnote-15).

وكما أن خلق السماء عجيب فكذلك خلق الأرض من العجب بمكان أن يهز هذه القلوب ويشحذ تلك الأذهان حين يدعوهم المولى سبحانه لأن ينظروا في خلق الأرض كيف أنه مدها فجعلها بساطا ممهدا (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ) [[16]](#footnote-16)، وفراشا لجميع الكائنات تأوي في جنباتها وترزق من خيراتها، (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً) [[17]](#footnote-17).

ثم ها هي الجبال الشامخات تلك الرواسي التي جعلها الله تعالى سببا لاتزان قشرة الأرض أثناء دورانها حول محورها، فتستمر الحياة عليها في نظام محكم بديع، وانظر –كذلك- إلى تلك النبتة، كيف كانت حبة - في الظاهر - ميتة لا حراك لها، وبقدرة الله تعالى تصبح تلك النبتة ما تتزين به الأرض، من كل نوع من النبات حسن المظهر، أليست مسألة البعث هذه قريبة الشبة من عملية الإنبات تلك، بل إن العجب العجاب أن الناس ينبتون كما في الحديث المتقدم ذكره من عظمة أسفل الظهر ( عجب الذنب ) تلك العظمة التي لا تبلى و يركب منها الناس، فالمسألة التي يعجب منها الكفار ليست بعجيبة لأنها حادثة في عالم النبات فليس ببعيد أن تحدث – كذلك - في عالم الإنسان و سائر المخلوقات.

والمقصد من سرد هذه الآيات الدالة على قدرة الله تعالى هي تذكرة أهل الإيمان – وذلك كعادة القرآن – حيث يكون الخطاب الدعوى موجها لهم في المقام الأول، ثم يأتي بعد ذلك عناية الخطاب الدعوى بغيرهم من المكلفين، فإن لم ينتبه هؤلاء الكفار لتلك القدرة الإلهية العظيمة فأولى بالانتباه إليها والاتعاظ بها المؤمنون، يقول سبحانه (تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)، الذين تميزوا بصفتي العبودية لله وحده والإنابة إليه سبحانه، وهم من ذكرهم الله في قوله سبحانه ( مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ )، حيث يكثر من الاسترجاع لله تعالى بقوله (إنا لله وإنا إليه راجعون)، وإن كانت الاسترجاع يحصل في المصائب، كما علمنا النبي صلى الله عليه وسلم ( ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله{ إنا لله وإنا إليه راجعون }اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا) [[18]](#footnote-18)، فالآية التي نحن بصددها تؤكد عمومه سواء في المصائب أو غيرها، بل في مواطن التفكر والتدبر الدالة على قدرة الله تعالى على البعث كذلك.

قوله سبحانه (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ[[19]](#footnote-19) لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ [[20]](#footnote-20)(10) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11)

ولم تكتف الآيات من الإشارات الكونية الدالة على عظيم قدرة الله سبحانه، وإنما ظل الإطناب ليزداد البرهان وضوحا وتأكيدا على البعث، فرسمت صورة حية لكيفية البعث في النباتات، فيحدث الإحياء من الموات، تلك المعجزة التي يقف أمامها الإنسان عاجزا غير قادر على أن يكتشف سرها غير أن يقر بوحدانية الله تعالى، فالماء النازل من السماء مباركا يجعله الله تعالى سببا في إنبات الجنات والحب الحصيد (فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ )، ذلك الحب الذي يحصده الزراع وقت حصاده بشكل طبيعي دون أن يدركوا كيف نما وصار على هذه الصورة، (وَحَبَّ الْحَصِيدِ )، وكذا النخل الذي قد اشتد عوده وسوقه، (وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ )، فطال حيث طال دون انحناء أو ميل وقد طلع ثمره متراكبا في أكمامه بعضه فوق بعض (لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ) ، كيف خُلق على هذه الهيئة من تلك الحبة الصغيرة، وكل ذلك ليس إلا رزقا رزقه الله عباده ( رِزْقًا لِّلْعِبَادِ)، حتى أنك تعجب عندما ترى الأرض الجرداء تحولت بقدرة الله تعالى إلى جنات خضراء دون أن يلمسها أحد غير المطر، (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا)، وهو ما يستشهد به المولى سبحانه على منطقية البعث بعد الموت،(كَذَلِكَ الْخُرُوجُ )، فكما أحيى الأرض بعد موتها فإنه كذلك قادر على أن يحيي عباده بعد مواتهم.

يقول صاحب الظلال: ( إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح الذي يقرأ بكل لغة , ويدرك بكل وسيلة ; ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة والكوخ , والمتحضر ساكن العمائر والقصور، كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده , فيجد فيه زادا من الحق , حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق، وهو قائم مفتوح في كل آن.... ).

قوله سبحانه (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ [[21]](#footnote-21) وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ [[22]](#footnote-22) وَقَوْمُ تُبَّعٍ [[23]](#footnote-23)كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)

وتخبرنا الآيات بالنهاية المعروفة والمصير المحتم لمثل من كذب بالبعث وكذب الأنبياء الأولين فحق عليهم وعيد الله لهم بالموت، وهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع، والشاهد من ذكر هؤلاء أنهم بلغوا في الدنيا مبلغا من المجد والعظمة ما لم يبلغه أحد مثلهم، وتفاخرا بعائلاتهم كقوم نوح، وغدرا بالصالحين كأصحاب الرس، واغترارا بقوتهم وبنيانهم كقوم عاد وثمود، واسترسالا في جمع المال والسلطان كفرعون، وإسرافا في الشهوات كقوم لوط، وظلما للناس وغشا في الحقوق كأصحاب الأيكة، وسخطا للنعمة كقوم تبع، حتى بلغوا مبلغ الطغيان، فهل غيَّر تكذيبهم للرسل من مصيرهم المحتوم ألا وهو الموت، ونظير الوعيد المقصود هنا قوله تعالى {إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ}، والقصص لا تنقطع والأمثلة لا تنتهي وكلها يجمعها أن مصيرهم كان صدقا إنزال الموت بهم حكما من الله تعالى، فكان موتهم هو صدور حكم من الله تعالى بوجوب إنزال العقاب بهم نظير تكذيبهم، لأن من مات قامت قيامته، وهي رسالة تهديدية وتذكيرية لقوم النبي محمد ألا يقعوا في مثل ما وقع فيه هؤلاء، فالمسألة بسيطة ولا تحتاج لكل ذلك الجدال والتكذيب، فكما أن المولى سبحانه خلق الخلق أول مرة فكذلك لن يعييه أن يخلقهم من جديد، قال سبحانه (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ )(29/الأعراف).

إن تذكير القرآن لنا بالموت وأنه هادم اللذات، يجعلنا نفكر فيما بعد الموت، طالما أن الحياة الدنيا لابد وأن تنقضي ولم يخلد فيها أحد، فماذا بعد الموت؟ فلا يمكن أن تنتهي القصة عند هذه المرحلة بعد هذا التدبير العظيم للكون والمخلوقات، وكيف بالحياة أن تنتهي فلا يكون لها امتداد في عالم الآخرة، بمعنى هل يعقل أن يخلق الله تعالى هذا الكون وتلك المخلوقات ويجعلها تتعايش معا وتنتج وتتكاثر على نحو معين ثم ينقضي ذلك كله ويفنى دون أن يكون ثمة معنى لتلك الحياة الدنيا، والقول بذلك يعتبر شيء من العبث الشديد لا يمكن تصوره أوالقول به في شأن من أبدع كل هذا الحسن ودبره.

بينما في المقابل يسهل التسليم بمنطقية البعث وأنه على مثال سبق، وقد خلق الله الخلق من العدم على غير مثال سبق، فلماذا يستعصي عليه شبحانه أن يعيدهم كما خلقهم أول مرة؟ يقول سبحانه (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (78/79)، فليس الأمر يستحق مثل هذا الجدال ولا ذاك اللبس، ولو أردتم جدالا فجادلونا فيما حدث لقوم نوح أو أصحاب الرس أو ثمود أو جادلونا فيما حصل لعاد وفرعون وإخوان لوط أو أصحاب الأيكة وقوم تبع، فهل استطاعوا بتكذيبهم هذا للرسل ومجادلتهم إياهم أن يفلتوا من المصير المحتم، وقد أعادت الآيات هذا المعنى في قوله تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ) {ق/36}، فالمسألة التي تجادلونا فيها منطقية ومسلمة وواضحة للعيان، فلابد – إذن - وأن تغيروا معنا طريقة تفكيركم في الدنيا، فإنكم لن تخلدوا فيها ولابد من حساب، ولن يفلت أحد من العقاب.

قوله سبحانه (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ [[24]](#footnote-24) (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)

كثيرا ما تجول في النفس خطرات أو وساوس وهواجس، ذلك أن العقل البشري يتميز بأنه كثير المراجعة لنفسه، إذ يضع أمامه أهداف محددة ووسائل لتحقيقها والعقبات التي تعترضه وسبل إزالتها وفي أثناء ذلك تنتابه هواجس الفشل أوالخوف أحيانا، وهو يسير في طريق المجهول لا يدري أسعيه في هذا الطريق سوف يحقق له أحلامه وطموحاته أم إنه اختار طريقا غير مناسب لتحقيق هذه الأهداف، شكوك وظنون تحيط به قد يتيه فيها فلا يدري أن يهتدي أو يلجأ؟ولمن يحتمي؟ إنه الله سبحانه وتعالى قال في كتابه (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (الطلاق /3)، فالإنسان إذا كلف نفسه الإحاطة بكل المخاطر التي تحيط به وإزالة المصاعب التي تقف أمامه والعقبات التي تعترض طريقه، فإنه لن ينعم بالأمن ولا بالأمان ولا السلام والطمأنينة، وسيظل متربصا متحسبا متوجسا حتى يتنهي به المطاف إلى مرحلة الوسوسة، وهي مرحلة خطيرة أقرب إلى الجنون إن لم تصل إلى الجنون فعلا، إن المسلم ينأى بنفسه أن يقع في دائرة الوسوسة، ولذلك يستعن بالله دائما من شر الوسوسة ، بل إن الوساوس كادت من كثرتها أن تفسد علي الإنسان عبادته لربه، يقول النبي (إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين فإذا قضي النداء أقبل حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر حتى إذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى) [[25]](#footnote-25)، فلا ينبغي للمسلم أن يستسلم لهذه الوساوس وإنما عليه دائما أن يتصل بذكر الله تعالى، ولا يدع مكانا في قلبه لشرور النفس التي تنبع من هذه الوساوس، يقول النبي (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا) [[26]](#footnote-26)، وإن غلبت عليه الوسوسة فإنه يقاومها حتى تظل حبيسة نفسه، يقول النبي (إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم) [[27]](#footnote-27)، فإذا ظلت هذه الوساوس حبيسة صدره وكتمها ولم تخرج لحيز العمل أجر عليها، يقول النبي (من هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة) [[28]](#footnote-28)، فمن الذي يصرف هذه الوسواس عن الإنسان؟ وكيف تنصرف عنه؟ يجيب المولى سبحانه (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ،إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)، وعليه فإن ثمة أمور لدفع الوسوسة قد نستخرجها من تلك الآيات المباركات، وذلك على التفصيل التالي:-

أولا: في قوله تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)، ما يفيد بوجوب الاعتقاد بأن الله تعالى خالق الإنسان هو أعلم بخلقه وما يصلح لهم وما يضرهم، وإنما عليه أن يذعن ويخضع لما حكم الله به وكله ثقة أن ذلك يحقق مصلحته دون عناد أو استكبار، بما يكفيه أن يظل مترقبا متوجسا للأمور أو متشككا، وقد كفاه الله تعالى عبء ذلك، غاية الأمر أن يسير على شرعه ليحقق مصلحته في الدنيا والآخرة، ذلك أنه سبحانه خلق الخلق ولم يتركهم هملا وهو أعلم بحاجاتهم واحتياجاتهم وخط لهم ضربا يسيرون عليه، وهي شريعته، فلماذا إذن يخاطر الإنسان بالسير خلاف المنهج ويلتمس المصلحة في غير ما شرعه الله له.

ثانيا: في قوله تعالى (وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ) ما يفيد وجوب مجاهدة المؤمن للوسوسة وعدم الاسترال لها، فبالرغم من أن الوسوسة قد تدفع المؤمن لارتكاب ما يبغضه الله إلا أن وجودها في ظل مقاوته لها ودفعه إياه بُشرى خير له، فعن أبي هريرة قال جاء ناس من أصحاب النبي فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال وقد وجدتموه؟ قالوا نعم قال ذاك صريح الإيمان) [[29]](#footnote-29)، فذلك دليل أنه يسير على طريق الإيمان وإلا لانشغل الشيطان بوسوسة غيره عنه، ولذلك عندما سئل النبي عن الوسوسة قال تلك محض الإيمان) [[30]](#footnote-30)، وذلك –كذاك - علامة على أنه مبتلى، والمرء يبتلى على قدر دينه، يقول النبي ( يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه)، ولا شك أن الوساوس أظهر البلاءات اعتراضا للإنسان، والوسوسة لابد وأن تندفع بالذكر وإلا استمرت تجول في خاطر الإنسان لتفسد عليه عيشه، ولذلك وجب دفعها بالمجاهدة والذكر، لقوله تعالى (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) (الأعراف /200-202).

ثالثا: في قوله سبحانه (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)، استشعار لمعية الله تعالى للعبد في كل أحواله ومراقبته له كل أعماله، فإذا علم الإنسان ذلك فعليه أن يخجل أن يحدث نفسه بما فيه شر وما لا يرضيه، وهذا هو الصفاء النفسي الذي ينشده الإسلام، فلا يكفي أن تلتزم الجوارح منهج الله والقلب عنها منصرف، وإنما لابد أن تسلم القلوب لهذا المنهج وأن يستقر في ضمائر المؤمنين اتزان نفسي يحب كل ما يحبه الله ورسوله ويبغض كل ما يبغضه الله ورسوله، يقول النبي (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) [[31]](#footnote-31)، أو كما قال (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) [[32]](#footnote-32).

رابعا: في قوله سبحانه (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ )، يقول بن عاشور: (التلقي: أخذ الشيء من يد معطيه، استعير لتسجيل الأقوال والأعمال حين صدورها من الناس)، فاستحضار مراقبة الملكان للإنسان تجعل المرء لا يغفل عن حياة الغيب التي يعيشها وليس بمعزل عنها، فهو إن كان يعيش بين عالمين مختلفين لا تلاقي بينهما، عالم الغيب وعالم الشهادة، فإن عالم الغيب أوقع من عالم الشهادة، فإذا انفصل بعالم الشهادة عن عالم الغيب جمدت أفكاره وأضحت نفعية بحتة، وإذا فكر في عالم الغيب دون أن يعيش واقعه في عالم الشهادة أضحى تائها لأنه بذلك أقرب إلى التنجيم وادعاء الغيب وذلك ضلال مبين، فإنك لا تعلم من الغيب إلا القدر الذي أخبرك به الشرع وما سوى ذلك فأنت عنه غافل، والحق أن يعيش المؤمن في عالم الشهادة دون أن ينفصل به عن عالم الغيب، قال تعالى: (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) {الزخرف/80}، وأول ما يستشعره من عوالم الغيب أمران أولا: معية الله تعالى ومراقبته له، والثاني مصاحبة الملكان له وقعودهما عن يمينه ويساره، واستحضار معنى حضور الملكان وقعودهما عن يمين المرء وشماله، وأنهما لا يفارقانه أبدا بينما الأهل والأحباب قد يفارقانه حال خلوته أو نومه، لهو أدعى إلى تحصيل المراقبة، يقول النبي (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ) [[33]](#footnote-33).

خامسا: في قوله سبحانه (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (18) ما يفيد وجوب مراقبة المسلم لجوارحه وبخاصة لسانه، فعن معاذ بن جبل: قال كنت مع النبي في سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير فقلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال لقد سألتني عن عظيم... ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروته وسنامه؟ قلت بلى يا نبي الله فأخذ بلسانه قال كف عليك هذا فقلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون مما نتكلم به؟ فقال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم) [[34]](#footnote-34)، ونظير ذلك قوله سبحانه (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) (يس/12)، فليحترز المؤمن من أن تحصى عليه أقواله وأعماله، يقول النبي صلى الله عليه وسلم (إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوي بها سبعين خريفا في النار)، ويقول النبي (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفع الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم ) [[35]](#footnote-35).

قوله سبحانه (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ) (30).

تفاجئنا السورة بمشهد قدوم الموت، ومن رحمة الله تعالى أن جعل قدومه مصحوبا بمقدمات تدل على اقترابه، تلك السكرات التي تأتي المؤمن منذرة اقتراب أجله وكأن الموت يخطو خطواته نحو ضحيته رويدا رويدا، يقول النبي صلى الله عليه وسلم ( المؤمن يموت بعرق الجبين ) [[36]](#footnote-36)، والمستفاد من هذا الحديث أن في إطالة سكرات الموت على المؤمن تخفيف من ذنوبه ورفع لدرجاته، قال العلماء أنه يشدد عليه الموت حتى يعرق جبينه لأن الإنسان قد يتقاصر بحياته عن درجة الصابرين فإذا شدد عليه بالموت وصبر نال الدرجة العليا[[37]](#footnote-37)، وقيل هو علامة الخير عند الموت، قال العلماء يعني يشتد الموت على المؤمن بحيث يعرق جبينه من الشدة لتمحيص ذنوبه أو لتزيد درجته [[38]](#footnote-38)

والتعريف اللغوي لكلمة سَكرة يفيد أنها تتضمن معنى غياب العقل، فهي مشتقة من السُكر[[39]](#footnote-39)، فهي حالة تنتاب الإنسان قبيل موته بحيث يكون بين الوعي واللاوعي، يقول الإمام البقاعي: (سكرة الموت) أي حالته عند النزع وشدته وغمرته يصير الميت بها كالسكران، لا يعي وتخرج بها أحواله وأفعاله وأقواله عن قانون الاعتدال، تلك السكرات قد وصفتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فذكرت مرَض رسول الله فقالت ثقل النبي فقال ( أصلى الناس )، قلنا لا هم ينتظرونك قال (ضعوا لي ماء في المخضب)، قالت ففعلنا فاغتسل فذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق فقال ( أصلى الناس )، قلنا لا هم ينتظرونك يا رسول الله قال ( ضعوا لي ماء في المخضب )، قالت فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق فقال ( أصلى الناس )، قلنا لا هم ينتظرونك يا رسول الله قال ( ضعوا لي ماء في المخضب )، فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق فقال (أصلى الناس) قلنا لا هم ينتظرونك يا رسول الله والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي عليه السلام لصلاة العشاء الآخرة فأرسل النبي إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس ) [[40]](#footnote-40).

وتجدر الإشارة إلى أن سكرات الموت لا تعتبر علامة رضا ولا علامة غضب، لأنها كما تصيب المكذب بالبعث - الذي يحيد عن الحق- فإنها تصيب كذلك المؤمن ولم يسلم منها الأنبياء ، وقد أصابت النبي فروت عنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم كان بين يديه علبة فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول (لا إله إلا الله إن للموت سكرات)، ثم نصب يده فجعل يقول ( اللهم في الرفيق الأعلى ) حتى قبض ومالت يده [[41]](#footnote-41)، قال العلماء: إن الشدة عند الموت ليس علامة سوء حالة الميت ولا التخفيف علامة صلاحية حاله، بل يمكن الشدة للصالح لرفعة درجاته، ويمكن السهولة لغيره ليجزى خيره في الدنيا ولا يبقى له حظ في الآخرة [[42]](#footnote-42)، وقد لوحظ أن الشدة قبل النزع، فتكون الشدة كفارة للسيئات، قال العلماء إن المؤمن تحمل الغمرات قبل النزع، وأما حالة النزع فيخرج روحه سهلاً والطالح لا يخرج روحه إلا بالتشديد [[43]](#footnote-43).

أما الغمرات فإنها تخص الظالمين، حيث يغمرهم الموت بسكراته، كما في قوله سبحانه (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آَيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) (الأنعام/93)، فتنقلب السكرات إلى غمرات حين تأتي الظالمين.

ويلي احتضار المرء وخروج الروح من الجسد أن تقوم قيامته، فمن مات قامت قيامته، يقول سبحانه (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ)، قال العلماء ونفخ في الصور، أي نفخة البعث [[44]](#footnote-44)، وبهذا السرد تتجاوز الآيات مرحلة البرزخ، أي مرحلة القبر تلك التي تلي الموت وقبل البعث، لتصرف اهتمامنا إلى مرحلة البعث الذي هو بيت القصيد في هذه السورة وهو الذي عجب منه الكافرون، يقول رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «كيف أَنْعَمُ وقد التقَم صاحبُ القرنِ القرنَ، وحنَا جبهته، وأصغى سمعَه، ينتظر أن يؤمَر فيَنفُخَ؟ فكأن ذلك ثقُلَ على أصحابه، فقالوا: فكيف نفعل يا رسولَ الله، أو نقول؟ قال: قولوا: حسبُنا الله ونعمَ الوكيلُ، على الله توكلنا[[45]](#footnote-45).

ثم يلي النفخ للبعث مرحلة الجمع والحشر يقول سبحانه (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا) (الكهف/99)، إذ يتحقق ما لم يكن الكافر يتمناه حيث يبعث ويجد ما وعده ربه حقا، (ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ)، فهو وعد بالجائزة للمؤمنين ووعيد بالعذاب للمكذبين، ثم يبدأ الحساب.

والعجيب أن المولى سبحانه يضع للحساب الضوابط والإجراءات المتبعة التي فرضها سبحانه على نفسه ليتحقق العدل في الآخرة، وهو قادر على أن يحاسب عباده دون الإتيان بالشهود والأدلة والقرائن، لكنه سبحانه من أسمائه وصفاته العدل، بأن يحاسب عباده حساب وفقا لشروط مسبقة ليقوم ميزان العدل في الآخرة، وأولى بنا أن نتبع هذه الضوابط والإجراءات لنقيم ميزان العدل في الدنيا.

يقول سبحانه (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) (21/ق)، يقول القرطبي: قال ابن عباس: السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم الأيدي والأرجل، فالملائكة قد باشرت وظيفتها حيث قامت بضبط كل مخالفة قام بها ابن آدم وحررت المحاضر التي يستدل منها على هذه الجرائم والمخالفات، يقول سبحانه (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ) (يس/29)، واللافت للنظر أن الله تعالى كلف الملائكة بالقيام بهذه الوظيفة، وهو ما يستدعي يختار ولي الأمر أطهر العباد قلوبا للقيام بأعمال الشرطة قياسا على الملائكة في وظيفتها تلك التي أشرنا إليها، وهكذا يعلمنا القرآن أمور حياتنا من خلال ما نؤمن به من معتقداتنا التي ندين بها لله تعالى، إذ لا يكفي أن يقوم بالقضاء من نثق في عدله وإنما لابد وأن تكون إجراءات المحاكمة والتحقيق ومن قبلهما الضبط والإحضار عادلة حتى تكون المحاكمة برمتها عادلة.

وللافت للنظر أن المولى سبحانه لم يكتف بما ساقته الملائكة – رغم أنهم لا يعصون الله ما أمرهم – من محاضر الاستدلال على ما اقترفه ابن آدم من أخطاء وذنوب، وإنما لابد وأن تقوم ثمة أدلة معتبرة على ذلك، وفي هذا المقام تكون الشهادة، لكن من يشهد على ابن آدم، أهل القانون يقولون أن الاعتراف هو سيد الأدلة، وكذلك المولى سبحانه وتعالى يجعل الجوارح تنطق بما اقترفه الإنسان، يقول سبحانه (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (النور /25-24)، ويقول سبحانه (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ،وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (فصلت /20-22).

عندئذ يقول – لسان حال - الإنسان ليتني انتبهت لحياتي التي كنت غافلا عنها من أمور الغيب التي كنت أعيشها في عالم الشهادة، أو بمعنى آخر ليتني كنت مصدقا أن الله جعل لي قرينا عن يميني وشمالي يكتب ما أقول وأفعل، فاليوم انكشف الغطاء ولا غيب وكل ما غاب عنك في الدنيا فهو مشاهد يوم القيامة، يقول سبحانه (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)، فقد انتهى الامتحان و الابتلاء ولم يبق إلا الحساب والجزاء.

يقول سبحانه (وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ )(ق/23)، يقول النبي (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائكة ) [[46]](#footnote-46) إذ توضع السجلات لتحصى الأعمال على العباد، ونظير ذلك قوله سبحانه (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (الكهف/49)، ثم يصدر الحكم من الله تعالى الذي يقضي بين العباد، وهو حكم تفصيلي بالإلقاء في جهنم (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)، مسببا بحيثيات محددة تشتمل على أوصاف الإدانة (كفار – عنيد – مناع للخير – معتد – مريب – جعل مع الله إلها آخر )، (مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ \* الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ) (ق/25-26)

واللافت للانتباه أن الملائكة تقوم بوظيفة أخرى غير وظيفة التقصي والتثبت وإحصاء أفعال وأقوال المكلفين وكتابتها في سجلات، إذ يكلفها الله تعالى بمهمة السجان والحارس لأهل النار، (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)، ونظير ذلك قوله سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (التحريم/6)، وتلك أيضا لمحة نتعلم منها أن يقوم البشر باختيار من هم أمثلهم أخلاقا وأفضلهم سمعة ونقاءا للقيام بمهمة السجان والحارس ومنفذي الحدود، قال تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) (50/الأنفال)، وألا توكل مثل هذه الأمور لمخرومي المروءة والفاسدين أو حتى غير المعروف عنهم بأنهم أفضل الناس وأمثلهم، والله قادر على أن يعذب هؤلاء بدون ملائكة، ولكنه يعلمنا أمور حياتنا بما نعتقده من أمور آخرتنا.

وتسرد الآيات الصفات التي استحق لأجلها أهل النار العذاب، فقد صدر الحكم من الله تعالى (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ) فمن يستحق هذا العذاب؟ ذكر في منطوق الحكم لفظ (كُلَّ) وهو يفيد العموم والشمول والاستغراق والإحاطة لكل اسم نكرة جاء بعدها، وهم... كل (كَفَّارٍ، عَنِيدٍ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ، مُعْتَدٍ مُرِيبٍ، الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ ) كل أولئك ما حكمهم؟ (فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ)، وقبل تفصيل ذلك، نود أن ننوه إلى أن هذه الصفات ليست بمعزل عن بعضها البعض وإنما هي صفات مترابطة ومتشابكة ويعضد بعضها بعضا لاستحقاق العذاب الشديد والإلقاء في جهنم، وذلك على النحو التالي:-

فقوله تعالى (كفار): يشير إلى أن المخاطب بهذه الآية من تعدى مرحلة الكفر إلى مرحلة استمرار الكفر بعد إقامة الحجج عليه، حيث ينطبق عليه وصف المبالغة من الكفر بلفظ (كفار)، فإن كان الكفر أساس كل شر، فإن الاستمرار فيه لتتراكم أعمال الكفر بعضها فوق بعض بما يصم الكافر بأنه كفار حيث لا ينسب إليه شكر أبدا، الأمر الذي يصير به الكافر إلى مرحلة العناد، فيسمى بالكفار، يقول سبحانه (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (91)، إذ لولا إصراره على الكفر لكان الأمر مرجو في أن تأت اللحظة التي ينشرح قلبه فيها للإسلام.

وقوله تعالى (عنيد): يعني أن من الكفار من ليس عنيدا بدليل أن منهم من يدخل الإسلام، لكن استمرار الكفر وإتيان أعمال الكفر يورث عنادا واستكبارا، يقول سبحانه (فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا، اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) (43/فاطر)، وقد بلغ قوم نوح من العناد مبلغا لم يبلغه مثلهم، وظلوا على عنادهم ألف سنة إلا خمسين عاما، يقول سبحانه (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آَذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7/نوح)، فلم يكن جزاؤهم إلا الطوفان.

وقوله تعالى (مناع للخير): فيه إشارة إلى تخطي الكافر مرحلة العناد – تلك التي لا تضر غير نفسه - إلى مرحلة الصد عن سبيل الله تعالى، وقد يظن ظان أن من الكفار المعاندين المتشددين في الفكر والمتصلبين في الرأي من ليس بصاد عن الحق ولا بمناع للخير، كل ما في الأمر أنه يدافع عن رأيه ووجهة نظره الخاطئة ظنا منه أنها صوابا، فتجده يستلهم من الكفر إرشادا ومن العناد هدى بينما هو في الحقيقة يعمه في غيه وضلاله، بيد أن الحقيقة غير ذلك، ذلك لأنه وإن كان الظاهر من حاله أنه لا يمنع خيرا - في ظنه - ولا يبغي شرا – كذلك في قصده – فإنه كذلك في اعتبار القرآن، بل لابد وأن يصطدم بالحق وأهله إن ظل يعتقد ما يعتقده من الكفر حتى ولو لم يظهر من فعله منع للخير أو صد عن سبيل الله، ذلك أن اعتقاد الكفر - في أصله - مانع للخير، فمن لم يشكر الله تعالى كيف يشكر العباد؟ ومن لم يؤد حق الله تعالى عليه كيف يؤدي حق العباد؟ فالكفر والعناد بالكفر يعظم النظرة الشخصية القاصرة على النفس فحسب، وتعظيم النفس في مقابل تصغير الغير وحقوق الآخرين، بينما يهتم الإسلام بالإطار الاجتماعي للمسلم، فيضع حقوقا للآخرين تنبث من كونهم يعيشون معه في مجتمع واحد، يقول النبي (إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يا رب كيف أعودك؟ وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يا رب وكيف أطعمك؟ وأنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال يا رب كيف أسقيك؟ وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي) [[47]](#footnote-47).

وقوله تعالى (معتد):يوضح أن الكفر لا يقتصر على منع الخير فحسب، وإنما يتطور إلى مرحلة الهجوم والتعدي على حقوق الآخرين، لقوله سبحانه (مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)، فلأنه ظهر منه منع الخير فلابد وأن يلي ذلك ظهور العدوان منه إن لم يجاهده المسلمون، وهنا تجمع صفات المبالغة في الكفر والعناد ومنع الخير حتى الاعتداء على حقوق العباد، يقول سبحانه ( وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ)(119/الأنعام).

وقوله تعالى (مريب): يدل على أن من اتصف بتلك الصفات الآنف ذكرها قد أصبح في مرحلة الريب والشك، وهو ضرب من الوسوسة، وكثير من التخبط، لتجده يرتاب في كل شيء ولا يثق أي شيء حتى في نفسه أو من حوله من أقربائه وعشيرته، وهي أشد مراحل الانزلاق إلى الهاوية، وهي مرحلة المفاصلة الكبرى التي لا يجدي بعدها النقاش أو الحوار، وإنما لابد عندئذ من التبرؤ والتجرد لله سبحانه القائل في كتابه (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (يونس/104).

وقوله تعالى (الَّذِي جعل مع الله إلها آخر): ربط تلك الصفات التي جمعتها الآية سلفا بصفة جامعة لها بقوله تعالى (الذي)، تلك الصفة الجامعة هي الشرك بالله تعالى، ولم تذكرها الآية تصريحا، وإنما ذكرتها تعريضا بقوله سبحانه (جعل مع الله إلها آخر)، فهو لم ينصرف عن عبادة الله تعالى بالكلية، وإنما عبد معه غيره، فلم يوحده سبحانه بالعبودية، وهذا هو الإشراك بالله، والغاية من ذلك هو صرف الناس عن عبادة الله بطريق التلهي بعبادة غير الله سبحانه، إذ لو زعم هؤلاء أن لا إله وحسب، لأضحى غير المؤمن بالله تعالى في فراغ عقائدي، وكلما مر عليه الزمن وانشغل تفكيره بما يجب أن يعتقده لاقترب من الدين الحق حتى يدين بالإسلام لله، لكن عندما ينشغل فكره بعبادة غير الله تعالى فإن ذلك يشغله عن التوحيد لله سبحانه، ولذلك عبدوا غير الله ليضلوا الناس عن عبادة الله، قال سبحانه (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) (إبراهيم/30).

ثم يتأكد الحكم من الله ويصير نهائيا غير قابل للاستئناف بقوله تعالى (فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ)، وعندئذ تحدث جلبة وضجة حيث يحدث تشاحن بين القرناء، فيزعم الكافر أن قرينه قد أورده المهالك، فيرد القرين بأن لم يكن هو سبب إغواء الإنسان، يقول سبحانه (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ )، يقول النبي (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا وإياك؟ يا رسول الله قال وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير) [[48]](#footnote-48)، وينطق هذا القرين يوم القيامة ليتبرأ مما صنع ابن آدم رغم أنه كان سببا في إعانة بن آدم علي الشر، بل إنه قد أمره به فاستجاب له، قال تعالى: (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (إبراهيم /22)، ونظير ذلك كذلك قوله تعالى (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) (الحشر /16).

أوليس من العجيب أن يتبرأ الشيطان يوم القيامة من ابن آدم وما آل إليه مصيره، وقد أقسم أن يبذل كل طاقته لإغوائه؟ وقد أخبرنا القرآن بعزم الشيطان إضلال ابن آدم إذ قال (قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ \* قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ \* قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ \* ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) (الأعراف/17)، إن ما سوف يحدث يوم القيامة هو عين ما حدث في الدنيا حين تحزب الشيطان مع الكفار على المؤمنين فلما رأي الملائكة تؤازر الذين آمنوا خاف ونكص على عقبيه، قال سبحانه (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الأنفال/ 48).

لا عجب في ذلك، فذلك هو الخزلان المبين، ولذلك ينهي الله الخصام والجدال بين الشيطان وأهل النار، فكلاهما قد أضل نفسه وكلاهما أعان بعضهم بعضا لما آلوا إليه من مصير، قال تعالى (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ)، حيثُ قلتُ لإبليسَ: { لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } فاتبعتمُوه معرضينَ عن الحقِّ فلاَ وجْهَ للاختصامِ في هَذا الوقتِ [[49]](#footnote-49).

والمصير الذي يستحقه كلاهما هو قدر قد سبق في علم الله تعالى، ولا ظلم لأحد فيما آل إليه مصيره، يقول سبحانه (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) (ق/51)، وفي ذلك إجمال لأسباب هذا المصير، وتأكيد على أن دفع ذلك ممكن وممتنع، فهو ممكن عقلا وشرعا، وممتنع كونا لأنه عين العدل، أي لولا ما اقترفته أيديكم – كناية عن جوارحكم- من أفعال وآثام، لما صرتم إلى جهنم، وهو عين ما ذكرته الآيات كذلك من استدراك الشيطان لأسباب هذا المصير (وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)، وقد تأكد ذلك تحقيقا بقوله سبحانه (وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ)، تأكيدا على أن الله سبحانه قد بصَّر عباده الطريق وأنذرهم بالرسل، فلا ظلم لأحد، وقد قطع القرآن بأن الشيطان لم يكن مسلطا على ابن آدم إلا بما قدمه له ابن آدم من تنازلات ، كما قطع بأن الله سبحانه أرسل الرسل بالنذارة والبشارة وأنزل الكتاب فيه هدى للناس وفيه الوعد والوعيد؟

لكن قد يسأل سائل أليس الله بعالم بما سوف يفعله أهل النار؟ أليس هو قد تركهم ليصيروا إلى ما صاروا إليه؟ إذن لماذا خلقهم؟ أخلقهم لكي يعذبهم؟ وهو قادر على ألا يخلقهم وقد علم أنهم سيصيرون إلى ما صاروا إليهم قبل أن يخلقهم؟ فعن عائشة أم المؤمنين قالت: أتي النبي بصبي من الأنصار يُصَلَّي عليه – أي صلاة الجنازة - قالت قلت يا رسول الله طوبى لهذا لم يعمل شرا ولم يدر به فقال " أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلا وخلقها لهم، وهم في أصلاب آبائهم [[50]](#footnote-50)، إذن هو قضاء سبق وقدر قد قُدِر.

وقبل الإجابة على هذا التساؤل ينبغي التأكيد على أنه لا أحد يملك الإجابة عليها إلا الله وحده سبحانه، كما أن توجيه هذا السؤال إليه سبحانه ممتنع، يقول سبحانه (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) (الأنبياء/23)، فهذه الأسئلة لا يحق لأحد أن يسألها في حق الله، كما أنه لا يملك الإجابة عليها أحدا إلا هو، ورغم ذلك فإنه سبحانه أجاب إجابة قاطعة للشك، بقوله سبحانه (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)، ذلك أن الغاية من هذا التساؤل هو التشكيك في عدل الله تعالى، ولكنه سبحانه ينفي عن نفسه الظلم، كما في الحديث عن النبي فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا [[51]](#footnote-51)، فإذا كان الأمر كذلك فلا سبيل إلى معرفة هذه الإجابة إلا بالاعتقاد بأن الله تعالى يحكم بالقسط، وقوله حق وقدره عدل، يقول سبحانه (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ).

لكن قد يشفي صدر المريض أن يعلم الإنسان أنه قد اختار أن يُخلق ويحمل أمانة التكليف وقد عرضت هذه الأمانة على غيره من المخلوقات فأبت ووافق هو عليها، ولم يعجزه ربه عن حمل هذه الأمانة وإنما أعطى له المقومات والإمكانيات والقدرات والمؤهلات التي تمكنه من حمل هذه الأمانة، المهم هو التأكيد على أن ذلك كله ليس فيه أي ظلم للعبيد، وأن أهل الجنة يصيرون للجنة بحق وأن أهل النار يصيرون إلى النار بحق، ولا ظلم لأيهما

ومثال ذلك مثل المريض الذي يتم استئصال كليته لفشلها، أو بتر قدمه لخطورتها على حياته، وهو لا يفقه شيئا في الطب لكنه يثق في هذا الطبيب ويعلم أن في هذا مصلحته، فإنه يرضى بهذا المصير علما مسبقا منه أنه لن يظلم في قطع رجله أو استئصال كليته، وإنما ذلك سوف يصلح من شأنه، بل لو قيل له أنه سوف يتم استئصال ورم في جسدك لكنك بعده سوف تصير مشلولا شللا تاما لما مانع في ذلك وفضل العلاج باستئصال هذا الورم على الموت، وكل ذلك هو تكهن منه بالغيب أو أخذ بالأسباب التي يمكن تفسيرها في الاستعانة بالطبيب الثقة لأجل إجراء هذه العملية، إذن لماذا لا نثق في الله تعالى وهو الذي خلقنا؟ لماذا نرتاب في عدله وقد يسر لنا طريق عبادته وزلل لنا العوائق والعقوبات، بل هو الذي ضمن لنا في ميزان حسابه أن يعاملنا برحمته لا بعدله، فهو القائل في كتابه (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (الأنعام/160)، يقول النبي (جعل الله الرحمة في مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه [[52]](#footnote-52)، وفي رواية (وتسعة وتسعون ليوم القيامة) [[53]](#footnote-53)، إذن رحمة الله بنا أكبر من رحمة الأم برضيعها، ورغم هذه الرحمة خلق النار وخلق لها أهلها بحق، ولا ظلم لأحد في ذلك، فمجرد سؤال الله تعالى عن ذلك هو تشكيك في عدله، وليس ذلك من الإيمان في شيء فهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قدم على النبي سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبي ( أترون هذه طارحة ولدها في النار )، قلنا لا وهي تقدر على أن لا تطرحه فقال ( لله أرحم بعباده من هذه بولدها ) [[54]](#footnote-54)، فطالما أن الله تعالى قد أخبر بأنه ليس بظلام فلا ريب بعد ذلك في عدل الله ولا جدال في استحقاق المصير.

وحين يسأل الله سبحانه جهنم (هَلِ امْتَلَأْتِ )، فترد عليه (وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) لا يتطرق شك في قلب المؤمن في عدل الله تعالى كذلك، وإنما عليه أن يعلم أن الله حين خلق جهنم وخلق لها خلقها، وإنه رغم أنه سبحانه قد وسع من أقطارها، وقد ألقي فيها كثير من الناس إلا أنها لا تزال تسأل عن المزيد، والله تعالى يقول (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) (ق/51)، فعن النبي قال ( اختصمت الجنة والنار إلى ربهما فقالت الجنة يا رب ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار أوثرت بالمتكبرين، فقال الله تعالى للجنة أنت رحمتي، وقال للنار أنت عذابي أصيب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها، قال فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدا وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقون فيها فتقول هل من مزيد ثلاثا حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ ويرد بعضها إلى بعض وتقول قط قط قط ) [[55]](#footnote-55)، ولذلك فإن ملئ النار بأهلها هو حق وبر قسم، قال سبحانه (وَلَوْ شِئْنَا لَآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ) (السجدة/13)، قال عز وجل (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ،لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) (ص/85) ، إذن حين يبارز الشيطان ربه ويضم إليه من حق عليهم الغواية من الجن والإنس من اتبعه فعندئذ كان لزاما أن يعد الله جهنم بأن تمتلئ بهم أجمعين، يقول سبحانه (فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة/24)، يقول النبي (قال لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة) [[56]](#footnote-56)، إذن لا فضل في الآخرة ولا مكان في الجنة أو النار لأحد غير ما قد كتب في قدر الله وقضائه، و كل ذلك بعدل الله ولا ظلم لأحد.

يقول سبحانه (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35)

والترهيب الذي جاءت به الآيات شديد ومروع، ولذلك كان القارئ بحاجة إلى ما يهدئ من روعه ويطمنه فضل الله تعالى ورحمته، وذلك كعادة القرآن يلي الترهيب ترغيبا لتكتمل عقيدة المسلم الصحيحة، كما شبهها العلماء بالطائر الذي يطير بجناحين، أحدهما جناح الخوف والآخر جناح الرجاء، يقول صاحب الظلال (فالجنة تقرب وتزلف , فلا يكلفون مشقة السير إليها، بل هي التي تجيء)، ولعل اقتراب الجنة يتحقق حينما يموت المسلم ويرى مقعده في الجنة ويتمنى أن تقوم الساعة لشوقه إليها، يقول النبي ( إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة) [[57]](#footnote-57)، ويقول (العبد إذا وضع في قبره وتولي وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ؟ فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال انظر إلى مقعدك في النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة ) [[58]](#footnote-58)، وهكذا تقترب الجنة وتتزلف للمتقين من قريب لا من بعيد وكأنها عروس تُزَف لزوجها، وحينها يتأكد وعد الله لأهل الجنة فيقولون (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) (الزمر/74).

فقوله تعالى (لِلْمُتَّقِينَ): أسلوب اختصاص ببشرى اقتراب الجنة، ذلك أن التقوى صفة جامعة لكل محاسن الأخلاق وسلامة العقيدة وحسن العبادات، يقول النبي (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة) [[59]](#footnote-59)، وقد جاء الخطاب القرآني بالبشرى للمتقين، وقال عز وجل (إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (/49)، وبذلك خلقت الجنة للمتقين وخُلق المتقون للجنة، فلا عجب أن تفرح الجنة وتقترب للمتقين حين يزفون إليها، يقول رسول الله يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم لست بصاحب ذلك اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله قال فيقول إبراهيم لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلا من وراء وراء اعمدوا إلى موسى الذي كلمه الله تكليما فيأتون موسى فيقول لست بصاحب ذلك اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه فيقول عيسى لست بصاحب ذلك فيأتون محمدا فيقوم فيؤذن له وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا فيمر أولكم كالبرق قال قلت بأبي أنت وأمي أي شيء كمر البرق؟ قال ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح ثم كمر الطير وشد الرجال تجري بهم أعمالهم ونبيكم قائم على الصراط يقول رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا [[60]](#footnote-60)، فالجنة تقترب وتتزلف من المتقين، ولمسافة بينهما قريبة غير بعيدة، فكان الإسراع إليها أدعى لإظهار الشوق إليها، فعندما يراها المؤمن أمامه يجتهد في السير إليها والعمل لها، فكلما اقتربت اقترب إليها، وكلما اقترب إليها اقتربت إليه، وهكذا يكون العمل الصالح مقترنا بالنية الصالحة، فكأن النية الصالحة هي العين التي تبصر الجنة، والعمل الصالح هو السرعة التي تقربنا إليها، فمنا من كان عمله الصالح كالبرق ومنا من يزحف به عمله الصالح إلى الجنة ، قال سبحانه (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران/133)،

قوله تعالى (هَذَا مَا تُوعَدُونَ) يحمل المؤمن على الاجتهاد في العبادة، لأنه قد وُعِد خيرا إن عمل خيرا، وصبر على ذلك، فعن النبي صلى الله عليه وسلم (وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنْ اللَّهِ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُبَشِّرِينَ وَالْمُنْذِرِينَ وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنْ اللَّهِ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ) [[61]](#footnote-61)، ويأتي فيما يلي تفصيل الصفات التي استحق لأجلها عباد الله ما وعد الله، وهم بالجملة المصدقون بما وعد الله تعالى عباده المتقين، وهم كل من اتصف بالتقوى والإنابة إلى الله تعالى وحفظ ما أمره الله به أن يحفظه، ذلك الذي آمن بالغيب وخشي الرحمن بالغيب وجاء لربه بقلب سليم بقلب منيب.

قوله تعالى (لِكُلِّ أَوَّابٍ): فيه إصرار من العبد الرجوع إلى الله تعالى بعد كل معصية تقع منه، فيندم ويستغفر لعل الله تعالى يغفر له يقول سبحانه (إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) (النور/25)، وفي الحديث عن النبي قال (قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني و رجوتني غفرت لك على ما كان فيك و لا أبالي , يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء , ثم استغفرتني غفرت لك و لا أبالي , يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا , لأتيتك بقرابها مغفرة "[[62]](#footnote-62).

قوله تعالى (حَفِيظٍ): قال قتادة: هو الحافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته، قال عز وجل (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (البقرة/238)، وقال تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) (المعارج/29)، وقال سبحانه (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) (المعارج/34)، كما مدح الحافظات فقال سبحانه (فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ) (النساء/34)، ومدحهم جميعا فقال سبحانه (وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (التوبة/112)، وفي الحديث عن النبي قال (ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروته وسنامه؟ قلت بلى يا نبي الله فأخذ بلسانه قال كف عليك هذا فقلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون مما نتكلم به؟ فقال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم) [[63]](#footnote-63).

قوله تعالى (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ): والخشية هي التي تحول بين المسلم الوقوع فيما حرمه الله تعالى، وبقدرها تتحقق التقوى، يقول النبي (لا يلج النار رجل بكي من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع) [[64]](#footnote-64)، وبذلك تكتمل دائرة الإيمان، قال تعالى (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ) (يس/11)، وخشية الله بالغيب هي مناط الابتلاء والتكليف، أما خشيته في الشهادة حيث تقوم الشهادة فلا يتحقق بها معنى الابتلاء، ذلك أن جميع المخلوقات سوف تبعث يوم القيامة، فترى أن الله تعالى قد غضب في هذا اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله قط، والناس حضور ويخشون ربهم سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين، فالجميع يخشى غضب الله تعالى هذا اليوم، لكن أين الإبتلاء هنا وقد رأوا ما يستلزم خشية ولا يمكن معه اطمئنان؟ أما في الدار الدنيا التي هي دار ابتلاء فإن الخشية فيها يتحقق بها معنى الابتلاء، حيث يعرف العبد ربه ويخشاه وهو لا يراه، قال سبحانه (قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي) (الأعراف/143)، بذلك يتحقق معنى الابتلاء.

قوله تعالى ( وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ): قال الطبري أي جاء الله بقلب تائب من ذنوبه راجع مما يكرهه الله إلى ما يرضيه، قال تعالى (وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ) (غافر/13)، ولما كان أدرك الناس لمعنى الإنابة السلف الصالح، فقد نقلنا عن آدابهم: (الإنابة ثلاثة أشياء الرجوع إلى الحق إصلاحا... كما رجع إليه اعتذارا... والرجوع إليه وفاء... كما رجع إليه عهدا... والرجوع إليه حالا... كما رجع إليه إجابة، وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحا بثلاثة أشياء بالخروج من التبعات والتوجع للعثرات واستدراك الفائتات، وإنما يستقيم الرجوع إليه وفاء بثلاثة أشياء بالخلاص من لذة الذنب وبترك الاستعانة بأهل الغفلة تخوفا عليهم مع الرجاء لنفسك وبالاستقصاء في رؤية علل الخدمة وإنما يستقيم الرجوع إليه حالا بثلاثة أشياء بالإياس من عملك ومعاينة اضطرارك وشيم برق لطفه بك ) [[65]](#footnote-65)، قال تعالى (وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (الزمر/54).

قال ابن تيمية: ( والإنابة جعلها مع الخشية..،وذلك لأن الذي يخشى اللّه لابد أن يرجوه ويطمع في رحمته، فينيب إليه ويحبه، ويحب عبادته وطاعته، فإن ذلك هو الذي ينجيه مما يخشاه، ويحصل به ما يحبه، والخشية لا تكون ممن قطع بأنه معذب؛ فإن هذا قطع بالعذاب، يكون معه القنوط، واليأس، والإبلاس. ليس هذا خشية وخوفا، وإنما يكون الخشية والخوف مع رجاء السلامة؛..فصاحب الخشية للّه ينيب إلى اللّه، وهذا يكون مع تمام الخشية والخوف، فأما في مباديها، فقد يحصل للإنسان خوف من العذاب والذنب الذي يقتضيه، فيشتغل بطلب النجاة والسلام، ويعرض عن طلب الرحمة والجنة، وقد يفعل مع سيئاته حسنات توازيها وتقابلها، فينجو بذلك من النار ولا يستحق الجنة، بل يكون من أصحاب الأعراف، وإن كان مآلهم إلى الجنة فليسوا ممن أُزْلفت لهم الجنة ـ أي: قربت لهم ـ إذ كانوا لم يأتوا بخشية اللّه والإنابة إليه [[66]](#footnote-66).

قوله تعالى (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ): فمن تخلق بتلك الصفات التي ذكرت آنفا نال هذا الجزاء، ذلك أن الذين يدخلون الجنة ثلاث فرق، أولهم من يدخلها بسلام لا بسابقة عذاب ولا مناقشة حساب، والفريق الآخر من يناقش الحساب فيطول عليه فيعذب بإطالة الحساب عليه ثم يدخل الجنة، و الآخر من تشحط في النار في يخرج منها ويدخل الجنة، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حمما فيلقون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل) [[67]](#footnote-67)، وفي رواية (فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين فيقول لكم عندي أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا فيقول رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبدا [[68]](#footnote-68).

قوله تعالى (ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ): وفي ذلك إضمار تقديره: ذَلِكَ يَوْم تَقْرِير الخُلُود[[69]](#footnote-69)، قال ابن عجيبة: (أي نهاية ذلك اليوم هو يوم الخلود، الذي لا انتهاء له) [[70]](#footnote-70)، قال ابن عاشور: إضافة {يوم} إلى {الخلود} باعتبار أن أول أيام الخلود هي أيام ذات مقادير غير معتادة، أو باعتبار استعمال {يوم} بمعنى مطلق الزمان[[71]](#footnote-71)، وقيل (لا خروج منه)[[72]](#footnote-72)،، قال الطبري (خلدوا والله، فلا يموتون، وأقاموا فلا يَظْعُنون، ونَعِمُوا فلا يبأسون) [[73]](#footnote-73).

ويستفاد من ذلك أنه لا تكليف في الجنة ولا ابتلاء، فاليوم جزاء بلا عمل، وإن كان العمل فهو عمل بلا تعب ولانصب ولا مشقة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ قَالُوا فَمَا بَالُ الطَّعَامِ قَالَ جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ) [[74]](#footnote-74).

قوله تعالى (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا): فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ{ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ }[[75]](#footnote-75).

وعن الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ يُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ عَلَى الْمِنْبَرِ - يرفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم - سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً قَالَ هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ ادْخُلْ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ فَيُقَالُ لَهُ أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ رَضِيتُ رَبِّ فَيَقُولُ لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ رَضِيتُ رَبِّ فَيَقُولُ هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ فَيَقُولُ رَضِيتُ رَبِّ قَالَ رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً قَالَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ قَالَ وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ }[[76]](#footnote-76).

قوله تعالى (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ): نظير ذلك قوله تعالى (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) {يونس/26}، قال بعض العلماء: المزيد النظر إلى وجه الله الكريم، ويستأنس لذلك بقوله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس:26]، لأن الحسنى الجنة، والزيادة النظر[[77]](#footnote-77)، وعَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ قَالَ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، وَزَادَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ{ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ }[[78]](#footnote-78).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالُوا يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا) [[79]](#footnote-79).

يقول سبحانه (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا [[80]](#footnote-80) فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)

قوله تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ) تعود السورة إلى الوعيد والتهديد باستعجال العذاب في الدنيا، وكما بدأت بضرب الأمثلة بالأقوام السابقين فإنها قبيل خاتمتها تشير إلى أن إنزال العذاب في الدنيا وإهلاك الأمم كان من الكثرة بحيث يسهل الجزم بأنها سنة كونية تكررت في الماضي وسوف تكرر في المستقبل لكل من كان من جنس هذه الأمم التي أسرفت في المعصية ولم تعتبر ولم تتذكر أو تنتفع بشيء من الذكرى وما وصلها من خطاب الله تعالى

قوله تعالى (هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا) فهي قرون قبلهم وصلت من القوة والشدة ما لم يصل إليه المتأخرون، ولذلك لا يستعصي على الله تعالى أن يهلك الآخرين كما أهلك الأولين، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (يونس/13)، فكان هذا هو مصيرهم في الماضي أما في المستقبل فقد أخبر النبي أنه سيكون في هذه الأمة مسخ وخسف وقذف [[81]](#footnote-81)، فقال رجل من المسلمين يا رسول الله ومتى ذاك؟ قال إذا ظهرت القينات والمعارف وشربت الخمر [[82]](#footnote-82).

قوله تعالى (فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ) فيه تصوير لمهلكهم، فهؤلاء القوم جابوا الصخر وطافوا بالأودية وقطعوا الأشواط و ساحوا في البلاد يمينا ويسارا، فلم يستعصِ عليهم شيء بل كانوا ينحتون من الجبال بيوتا، لكن حين نزل عليهم عذاب الله تعالى لم يستطيعوا منه فرارا أو مهربا، وقد اسطاعوا قبل أن ينزل عليهم العذاب أن يكيفوا حياتهم في الدنيا بحسب رغباتهم وحاجاتهم، فلم ينفعهم تقدمهم العلمي أو التكنولوجي ولا قوتهم الجسدية وعددهم البشري في صد العذاب الله الذي نزل بهم.

قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) فتقدم الأمم حضاريا ورقيها اجتماعيا وعلوها اقتصاديا لا يرتهن بما تملكه من إمكانيات مادية تحوزها ولا بعقول بشرية قادرة على إدارة ثرواتها ولا على الأيدي العاملة في صنع حضارتها، كل ذلك وإن كان مطلوبا إلا أنه لا يضمن بقاءها واستمرارها، وإنما يتوقف ذلك كله على مدى استعدادها للتربية الروحية والتزكية النفسية والطهارة القلبية، يقول سبحانه (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى \* وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى)، أي أن أشقى الناس لا ينتفع بالذكرى،، قال سبحانه ( أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (الحج/46).

إن إشكالية الأمم التي ضلت طريقها عن الله تعالى وتاهت في غياهب الظلمات أنها لم تفتح قلوبها للذكرى، ولم تلقِ بأسماعها لخطاب الله تعالى وإذا ما حاولت الاستماع فإن هناك ما يشغلها فلا تستفد مما سمعته شيئا لأنها لم تستمع بقلب حاضر وشاهد، وإنما غاب فكرها وعقلها عن التذكرة بما انصرفت به من متاع الدنيا وما ألهاها عن الاعتبار والموعظة، إن استحضار القلب وشهوده لهو من أهم وسائل الانتفاع بالمواعظ، ولذلك كان أول الناس دخولا في الإسلام من تميزوا بحسن الأخلاق والصبر على الاستماع والاستعداد للنقاش، وكذلك كان أبعد الناس عن الإسلام من فسدت أخلاقهم وظهر كبرهم وكبرياؤهم ولا يريدون أن يستمعوا لغيرهم وإنما يريدون أن يتحدثوا هم دون أن يستمعوا لأحد، قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (غافر/56).

يقول سبحانه (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40)

ضرب الله تعالى مثلا بخلقه للسماوات والأرض تدليلا على وجوب الصبر في مقام الدعوة، ذلك أن الدعوة الإسلامية ليست مجرد خطبة تلقي في محفل أو درس يذاع في منتدى أو كتاب يسطر وينشر في دور النشر أو إلقاء كلمة عصماء في حشد من الناس ثم انصرافهم متأثرين بها وقد تتأجج عواطفهم برهة من الوقت، لابد وأن تمر الدعوة الإسلامية بمراحل طويلة تتضافر فيها جهود الدعاة إلى الله تعالى، فالكون كله لم يخلق مرة واحدة أو على مرحلة واحدة رغم أن الله قادر على ذلك ولا يعجزه شيء من ذلك، بيد أن الله تعالى أراد أن يعلمنا الصبر في ذلك، لنرى حكمته أن أرادت مشيئته أن يكون خلقهما في ستة أيام متتابعات، فعن النبي (خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل) [[83]](#footnote-83)، وحين نستقرئ هذا الحديث فإننا نستلهم من مراحل نشأة الكون مراحل تطور الدعوة الإسلامية وأولوياتها وترتيب الدعاة إلى الله تعالى لأعمالهم الدعوية على هذا الأساس، على النحو التالي:-

* **مراحل نشأة وتطور الدعوة الإسلامية**

أولا: (مرحلة السبت): وهي التي خلق الله فيها التربة، وتقابلها مرحلة إعداد التربة الصالحة لقيام الدعوة الإسلامية، فكما أن الناس والدواب يحتاجون لأرض يعيشون عليها وقد خلقها الله لهم يوم السبت أول ما بدأ الخلق، فكذلك الدعاة إلى الله تعالى يحتاجون إلى أرض يبدأون منها دعوتهم إلى الله تعالى، ولتكن هذه الأرض هي منهج الله تعالى الذي خاطب به العالمين، ليتصل الدعاة إلى الله تعالى أنفسهم بمنهج الله، ويفهمونه جيدا، سواء أكان الكتاب الكريم أم السنة النبوية المطهرة، إذ أن فاقد الشيء لا يعطيه، فكلما كان الأرض خصبة تنوعت ثمارها وحقولها، يقول سبحانه (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ) (الشورى/15)

ثانيا: مرحلة الأحد: تلك التي خلق الله فيها الجبال، وتقابلها مرحلة إقامة أوتاد للدعوة الإسلامية، فكما أن الجبال هي أوتاد الأرض فكذلك العلماء هم أوتاد الدعوة الإسلامية، لأنهم النواة الأولى لها، والعمود الفقري للدعوة الإسلامية، ولذلك جاء الأمر من الله تعالى لأن يصبر نفسه بمصاحبتهم، قال تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الكهف/ )، فكان لاهتمام النبي بأصحابه – وهم الجيل الأول للدعوة - اهتماما خاصة أثر في إخراج العلماء الذين حملوا لواء الإسلام من بعده، ليكونوا هم أوتاد هذا الدين.

وهذه هي طريقة الأنبياء في الدعوة، أن أحاطوا بنقبائهم، وأحاط نقبائهم بهم حتى ذاع أمر الدعوة بين مؤيد ومعارض، قال سبحانه (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) (المائدة/12)، يقول النبي ( إن لكل نبي حواريا وحواري الزبير)، وذلك أنه قال ( من يأتني بخبر القوم ) يوم الأحزاب قال الزبير أنا ثم قال ( من يأتيني بخبر القوم )، قال الزبير أنا فذكر النبي الحديث [[84]](#footnote-84).

ثالثا: مرحلة الاثنين: تلك التي خلق الله فيها الشجر، الذي هو مصنع الحياة على الأرض، ويقابلها مرحلة العمل العام لبث الحياة والروح في الدعوة، أي بدء العمل الدعوي والمجتمعي والتفاعل مع المدعوين تماما مثل تفاعل عناصر الكون لإحياء الشجر والذي منه تبدأ سلسلة التغذية على الأرض، وبالتالي فإن الدعاة في هذه المرحلة ينشغلون بتحقيق النفع العام لمجتمعهم بصرف النظر عن عائده الدعوي، ذلك أن النفع العام هو مقصد أساسي وليس ثانوي من مقاصد العمل الدعوي، ليصل نفع المسلمين الناس أجمعين بصرف النظر عن معتقداتهم وأفكارهم وما يدينون، ولذلك صدَّر المولى سبحانه كتابه بسورة الفاتحة وقال في أول آياتها (الحمد لله رب العالمين)، ودون أن يخص المسلمين عن غيرهم، مؤكدا شمولية ربوبيته العالمين مسلمهم وكافرهم، منعما عليهم بالخير لا بقدر عبادتهم له وإنما بقدر رزقهم الذي كتبه لهم، وكذلك فإنه حفظهم ورعاية دون أن يخص المسلمين بتلك الرعاية أو الحفظ، فقال سبحانه (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) (الشورى/6)، فالحفظ شمل من عبدوا غير الله كما شمل من عبد الله تعالى.

رابعا: مرحلة الثلاثاء: وفيها خلق الله المكروه: ويقابلها تركيز الدعوة الإسلامية علي التخلية من كل مكروه، فالمظهر السيء هو الذي يدل على الباطن الأسوأ، والأخلاق السيئة أكثر ظهورا من الأخلاق الحسنة، والمفاسد لا تجتمع مع المحاسن، وإلا أفسدتها ، كالنجاسة إذا خالطت ماءا طاهرا فأثرت فيه، فلا يجوز التطهر به، ولذلك قال السلف التخلية قبل التحلية، قال تعالى (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) (الحجرات/7)، ومن ثم كان الصبر على المكروه هو صبر على مقاصد هذا الدين.

ومعيار القبيح والحسن غير متروك للأمزجة والأهواء.. [[85]](#footnote-85)

خامسا: مرحلة الأربعاء: وفيها خلق الله النور، وتستهدف هذه المرحلة تحلية المدعوين بالأخلاق الحسنة وبما هو معروف ومحمود، تماما مثل النور الذي يضيء الكون كله، وبذلك يكتمل مضمون الخطاب الدعوي بوجه عام، يقول سبحانه (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الأعراف/157)

سادسا: مرحلة الخميس: وفيها خلق الله الدواب كلها، وتقابلها مرحلة الدعوة العمل المؤسسي ذات النفع الخدمي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري، أشبه إلى قيام الدولة قائمة على تكامل فريد بين مجموعات وأطياف متنوعة من البشر بصرف النظر عن أوجه اختلافهم سواء عقائديا أو فكريا أو اجتماعيا، وبصرف النظر عن تميزهم من حيث اللون أو الجنس أو العرق، فقد خلق الله تعالى الدواب كلها يوم الخميس لتعيش الكائنات معا رغم اختلافها في الأنواع والأشكال والصفات إلا أنها تعيش في توازن بيئي يحفظ نوعها ويضمن تكاثرها دون تغول على غيرها من الأجناس والكائنات الأخرى، وهنا يظهر أثر الالتزام بمنهج الإسلام حيث يتحقق التوازن البيئي المنشود، وهو ما يعني الحرية والعدالة الاجتماعية والتنمية الاقتصادية، وهذه مرحلة شاقة ومرهقة جدا، ولا ينبغي استعجال قطف الثمار، فمن استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه، ولذلك يعقب المولى سبحانه على ترتيبه خلق السماوات والأرض في ستة أيام بقوله سبحانه (وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)، إذ لو أصاب الإنسان لغوبا لأفسد ما أصلحه وأضاع ما حافظ عليه، فالإرهاق الشديد حين يصيب المرء يجب أن يستتبعه توقف وراحة حتى يستعيد الإنسان نشاطه، ثم مع ترشيد الطاقات وتنظيم الأعمال يمكن استمرار العمل دون لغوب أو تعب مرهق ويتحقق بذلك المقصود، يقول النبي (سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل) [[86]](#footnote-86)، فالعبرة ليست بكثرة الأعمال بقدر ما تكون العبرة باستمرارها ودوامها وإخلاصها لله تعالى.

سابعا: مرحلة الجمعة: وفيها خلق الله تعالى الإنسان ليكون خليفة في الأرض، وهذه وإن كانت تسمى بمرحلة جني الثمار بإقامة الخلافة الإسلامية الراشدة كما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على منهاج النبوة إلا أنها كذلك تدخل تضمن مراحل الدعوة، ليعم الخير الكون كله، إنسه وجنه، بره وجوه وبحره، فالإنسان جاء على الكون بعد أن اكتمل خلقه في ستة أيام واستوى الله سبحانه على العرش، ثم جاء الاستخلاف ليتولى آدم وذريته المسئولية والقيادة بعد أن تم الخلق، ساعيا في إقامة شرع الله تعالى في هذا الكون اختيارا كما قام شرعه دونه اضطرارا.

* **المعينات على طريق الدعوة والزاد للدعاة**

قوله سبحانه (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (\*) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ) (ق/39-40 )

فمن أكبر المعينات على طريق الدعوة أن يتعلم الدعاة الإعراض عما يسمعونه من أقوال قد تؤذيهم معنويا من غير المسلمين أو الناقمين على الإسلام والمسلمين، يقول سبحانه (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) (آل عمران/186 )، فالدعوة الإسلامية ليست مناظرة ينتصر فيها أحد الطرفين على الآخر ولا مباراة حوارية بين اثنين ينتمي كلاهما لعقيدتين مختلفتين أو فكرين متنافرين، إن الدعوة الإسلامية هي مجرد دعوة تقتصر على البلاغ وحسب دون انتقام شخصي أو دفع اتهام يميل إلى الافتراء والتضليل عن تمحيص الحق واتباع أهله، فوقوف الدعوة الإسلامية في وجه الناقمين عليها موقفا سلبيا وإزاء الاعتداءات اللفظية التي تلقاها منهم لهو آكد على أنها أسمي من فكرة الانتقام الشخصي أو الدخول في معتركات لا طائل منها غير إضاعة الوقت، ولذلك كان اللافت للانتباه أن الآيات تصرف الطاقة التي تضيع عند محاولة الرد دفعا لأذهم القولي، فتتبدد ويتشتت المجهود إلى شيء أولى من ذلك كله ألا وهو الذكر والتسبيح، يقول سبحانه (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) (49/الطور)، أليس ذلك أولى من الرد عليهم ! وهذا ما يجعل المسلم ملتزما طريق الدعوة الصحيح لا يحيد عنه ولا ينزلق إلى مهاترات فكرية وسفسطة لغوية ومعتركات وهمية، إنه الذكر والتسبيح زاد المسلم التربوي الذي يطلبه في كل آن وحين.

وقد خص المولى سبحانه أوقاتا معينة للذكر وأحوالا معينا يستحب الإكثار فيها منه، كما قرن القرآن الكريم - في أكثر من موضع - الذكر والتسبيح بحركة الشمس طلوعا وغروبا، قال سبحانه (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) (الأنبياء/55)، وجعل مواقيت الصلاة مرتبطة كذلك بدوران الأرض حول محورها وما يستتبع ذلك من تأثرها بنور الشمس حيث يشرق عليها ثم يشتد وينزوي الظل ثم يمتد مرة أخرى بعد الاستواء ثم يستطيل حتى لا يكون للشمس نور ثم يشتد الظلام فيغيب شفق الشمس بالكلية ويشتد مرة أخرى حتى يكون حالكا ثم يظهر أول خيط لنور الشمس من الفجر، وهكذا يرتبط الذكر والتسبيح وكذلك الصلاة بالمتغيرات الرئيسية والدورية لهذا الكون ألا وهي نور الشمس وحركة الأرض، يقول سبحانه (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) (طه/130)

وقوله تعالى (قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ) وله مترادفات في القرآن بمعنى (الإبكار) (الغدو) [[87]](#footnote-87)، وقوله تعالى (وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) له كذلك مترادفات في القرآن بمعنى (العشي) وهو (وقت الأصيل) [[88]](#footnote-88)، يقول سبحانه (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ) (الرعد/15)، أما قوله سبحانه (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ) ففيه تخصيص لليل للذكر والتسبيح، قال تعالى (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) (الأعراف/205) ، وكذلك في أحوال الصلوات الخمس، قال سبحانه (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (النور/36).

يستفاد مما تقدم أن يكون الوقت من قبل طلوع الشمس، وهو وقت في قبل أن يبدأ النهار، وكذا الوقت قبيل نهايه، أي قبل الغروب، استقطاعا من عمل النهار، ثم الوقت من مبتدأ الليل حتى الفجر وقبيل طلوع الشمس قد خصه المولى سبحانه للذكر والتسبيح، حيث يلاحظ أن المسلم قلما يجد في تلك الأوقات ما يشغله بالعمل والتعايش مع المجتمع في الأعمال والأسواق للكسب والرزق أو متسعا للجلوس في النوادي مع الناس، وإنما يغلب أن يكون في بيته ومأواه جالسا في مسجده مربيا نفسه أو متربيا مع إخوانه على كتاب الله وسنته، بينما يكون الوقت طوال النهار للمعاش والتعايش مع الناس يؤثر فيهم بأخلاق الإسلام، والمعاملة الحسنة، ولا يتأثر بهم إلا بما يجدد نيته ويصحح مسلكه ويقوي عزيمته ويثبت جأشه.

يقول سبحانه (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44)

ينتقل الخطاب القرآني من الحديث عن الدعوة الإسلامية والدعاة إلى الله للحديث عن الغافلين من المدعوين الذين لم ينتبوا بعد لنداء إخوانهم الدعاة المسلمين، أولئك الذي أصموا آذانهم وأعموا أبصارهم حتى لا يسمعوا نداء الرحمن، وكأن قول الله تعالى (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (الزمر/45) قد نزل فيهم، فيخبرنا المولي سبحانه أن الخطاب الدعوي لن يذهب سدى، فإن لم يستمعوا له في الدار الدنيا فإنهم سوف يسمعونه حال خروجهم من القبور صحية لا رفق فيها ليس برفق، وقد كانوا من قبل يكذبون بها، فيحق الله الحق عليهم، ليسمعها كل من صم آذانه عن نداء الرحمن، والأمر في قوله سبحانه (وَاسْتَمِعْ) للنبي والظرف الذي يكون فيه الاستماع هو (يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ) وهذا الظرف يتضمن ظرفا آخر وهو (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ)، وثمة تعريف لهذين الظرفين وهو (ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ)، فكأن من لم يكن له قلب ولم يلقِ السمع للإخبار بالبعث، سوف يستمع لصيحة الخروج مكرها رغما عنه لأنه امتنع عن الاستماع طواعية للدعاة الذين حاولوا إخباره بذلك.

**وتجدر الإشارة إلى أن الاستماع للصيحة يتميز بخصائص ثلاث، وذلك على التفصيل التالي:-**

الأول: أنه من مكان قريب: قال ابن عجيبة: (بحيث يصل نداؤه إلى الكل، على سواء)، أي ليسمعه من بعد كما يسمعه من قرب [[89]](#footnote-89)، وفي ذلك إشارة إلى أنه قبل توجيه الخطاب الدعوي لابد وأن يتحقق الدعاة إلى الله تعالى من مكانتهم من المدعوين، ولابد للداعية أن يصل للمدعو حيث كان، لا أن ينتظر اقترابه منه أو احتشاد الجمع له، وإنما عليه أن يصل إليهم ويقترب من قلوبهم، عندئذ وحين يبدأ خطابه الدعوى سوف يجد الآذان الصاغية والقلوب المتفتحة، فالمولى قادر على أن يوصل الصيحة لآذان الأموات فيخرجون من مكان بعيد، ولكن قرب المكان الذي تأتي منه الصيحة تعليم لنا أن نلتمس ذات المنهج حال إيصال الخطاب الدعوي للمدعوين، قال تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ) (سبأ/51).

الثاني: أنه لن يكون بخطاب هادئ مثلما كان عليه الدعاة في دار الدنيا، وإنما سيكون صيحة صاعقة تذهلهم عما يشغلهم غير الساعة والحساب، قال تعالى (وَقَالُوا آَمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) (سبأ/52)، أي لما كان الخطاب الدعوي هادئا في الدار الدنيا ولم يؤمنوا به بل كذبوه، أضحى الخطاب صاعقا حال خروجهم من قبورهم فآمنوا بالبعث - أي وهم في حال البعث - فأني لهم أن ينالوا هذا الإيمان وقد أضحوا في عالم الشهادة، أما قبل ذلك فقد كانوا في عالم الغيب في الدار الدنيا التي بعدت عنهم بالبعث وقلبت صفحاتها.

والثالث: أن الاستماع سوف يكون بحق لا مجرد سماع خال من الفهم، ولكن بعد فوات الفائدة لأنه يوم الخروج، فكم حاول الدعاة إلى الله تعالى أن ينبهوا قومهم وينذرونهم لكنهم ظلوا في غفلتهم يعمهون، يقول النبي (إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه) [[90]](#footnote-90)

قوله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ): يشير إلى القدرة المطلقة لله تعالى في ( الإحياء والإماتة ثم البعث والجمع والحشر لتقرير المصير )، فالأمر يسير ويسهل تصوره، فكما تصور الإنسان تشقق الأرض لإنبات النبات من بذرة قد تبدو للعيان أنها ميتة ثم تصبح بقدرة الله تعالى شجرة وزرعا، فكذلك تتشقق الأرض يوم القيام لإنبات الأموات أحياءا بعد الحياة البرزخية لجمعهم إلى محشرهم، يقول النبي (ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة) [[91]](#footnote-91)، فعملية الإنبات هذه في ظاهرها معقدة أو مستحيلة لو نسبت للبشر لكنها يسيرة متى نسبت إلى القدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى، فهو قادر على إحيائهم بعد مواتهم سواء بالإنبات أو بغير إنبات.

يقول النبي (كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه إذ أنا مت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذابا ما عذبه أحد فلما مات فعل به ذلك فأمر الله الأرض فقال اجمعي ما فيك منه ففعلت فإذا هو قائم فقال ما حملك على ما صنعت؟ قال يا رب خشيتك فغفر له) [[92]](#footnote-92)، فتلك هي طريقة أخرى لجمع العظام والرفات لمن مات من بني آدم، فهل يستعصي على الله شيء؟ ولكن ليس معنى ذلك أن يوصي المرء بحرق نفسه بعد الموت وطحن بدنه حتى ينال رحمته، ذلك أن هذا الرجل كان يجهل حقيقة البعث لكنه كان يدرك ألوهية ربه وحسابه له، فلم يكن يعلم شيئا عن القدرة المطلقة، لكنه خشي من ربه الحساب فظن أن بفعله هذا يمكن أن ينجو، فكان إيمانه بالحساب رغم تقصيره نحو ربه في الواجبات كان سبب مغفرة الله له، بينما نحن قد علمنا القدرة المطلقة لله تعالى في الإماتة والإحياء، فليس ثمة معنى للتوصية بالحرق والطحن لأجسادنا وقد علمنا أن الله قادر على جمعها، وأن من يفعل مثل ذلك يكون قد استخف بما يعتقده من القدرة المطلقة لله تعالى، ولذلك فإن مثل هذا الفعل بعد بلوغ الدعوة لنا يمثل كفرا وردة وليس دليلا على الإيمان بالحساب والخوف منه كما كان هذا شأن الرجل الذي كان من قبلنا، إذ يغلب ألا يكون الخطاب الدعوي قد وصله كاملا وإنما منقوصا قاصرا على الحساب والقدرة النسبية على الإحياء والإماتة، وسبحان الله أن نال رحمة الله تعالى بما تعلمه عن عقيدته والتزمه من علم.

قال تعالى (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآَنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (45)

هنا تأتي خاتمة السورة لتصرف النبي وأتباعه من المؤمنين عما يقوله الكافرون، ذلك أن المسلم لم يكلف أن يكون وصيا عليهم أو جبارا وإنما تقف دعوته فحسب عند حد البلاغ، ليتجاهل المسلم الأذى القولي الذي تلقاه من الكافرين , ويظهر شكواه لله تعالى، فهو عليم بما يقولون، وليستمر في التبليغ عن الله تعالى، ( فَذَكِّرْ بِالْقُرْآَنِ)، يقول النبي (بلغوا عني ولو آية) [[93]](#footnote-93)، وذلك هو ضابط الدعوة إلى الله تعالى، فالدعاة غير مسيطرين على البشر ولا جبابرة، وهذا هو سر أن الدعاة إلى الله تعالى لا يبغون سلطانا ولا جبروتا في قومهم، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: أقبلت إلى النبي ومعي رجلان من الأشعريين فقلت ما علمت أنهما يطلبان العمل – أي أن يقلدا منصبا وزاريا أو قياديا - فقال ( لن نستعمل على عملنا من أراده) [[94]](#footnote-94)، فالتذكير بالله تعالى هو الشغل الشاغل للدعاة إلى الله تعالى، ومضمون الخطاب الدعوي هو كلام الله تعالى الذي سطره في كتابه الكريم وهو (القرآن الكريم)، والمنتفع بهذا الخطاب هو من ألقى السمع وهو شهيد، ذلك الذي ينتفع بالذكرى، وذلك هو (مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)، فهو الأولى بالخطاب الدعوي من غيره ممن كذب بالحق وظل في أمر مريج.

1. ) رواه مسلم ج 2 ص 595 رقم 873 [↑](#footnote-ref-1)
2. ) قاله النووي في الشرح على صحيح مسلم الحديث رقم 873 [↑](#footnote-ref-2)
3. ) في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب [↑](#footnote-ref-3)
4. ) رواه النسائي حديث رقم 1578 ج 3 ص 188 وصححه الألباني – ومثله عند أحمد في مسنده ج 3 ص 310 رقم 14373 [↑](#footnote-ref-4)
5. ) مضطرب مختلط، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار.

   مرج أصل المرج: الخلط، والمرج: الاختلاط، يقال: مرج أمرهم (انظر: الأفعال 4/159؛ واللسان (مرج) ) [↑](#footnote-ref-5)
6. ) معجم ألفاظ القرآن الكريم ج 6 ص 14 – مجمع اللغة العربية بالقاهرة [↑](#footnote-ref-6)
7. ) صحيح بن حبان 766 ج 2 ص 43 قال الشيخ الألباني: ( صحيح ) انظر حديث رقم: 8122 في صحيح الجامع، و في الجامع الصغير حديث رقم 14082 ج 1 ص 1409 [↑](#footnote-ref-7)
8. ) انظر تفسير ابن كثير الآية رقم 1 من سورة ق . [↑](#footnote-ref-8)
9. ) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج1 ص 922 [↑](#footnote-ref-9)
10. ) عجب الذنب هو الشريط الأولي Primitive Streak حيث إن هذا الشريط الأولي هو الذي يتكون إثر ظهوره الجنين بكافة طبقاته وخاصة الجهاز العصبي، ثم يندثر هذا الشريط ولا يبقى منه إلا أثر فيما يسمى عظم العصعصي (عجب الذنب).

    قد اكتشف العلماء أن الذي يقوم بالتخليق والتنظيم لجميع خلايا الجنين هو الشريط الأولي، وأول من اكتشف ذلك من العلماء هو العالم الألماني الشهير (هانسن سبيمان) حيث قام بدراسات وتجارب على الشريط الأولي والعقدة الأولية وأكتشف أن الخيط الأولي والعقدة الأولية هما اللذان ينظمان خلق الجنين وأطلق عليهما اسم(المنظم الأولي أو المخلق الأولي ¬(Primary Organizer وقام بقطع الشريط الأولي وزرعه في جنين آخر في المراحل الجنينية المبكرة في الأسبوع الثالث والرابع فأدى ذلك إلى نمو جنين ثانوي من هذه القطعة المزروعة في الجنين المضيف؛ حيث تقوم هذه القطعة المزروعة بالتأثير على البيئة التي حولها والمكونة من خلايا الجنين المضيف، بحيث تؤثر عليها وتنظمها ويتخلق منها جنين ثانوي مغروساً في جسد الجنين المضيف.

    ثم قام هذا العالم الألماني (سبيمان) عام 1931م بسحق المنظم الأولي وزرعه مرة أخرى فلم يؤثر السحق حيث نما مرة أخرى وكون محوراً جنينياً ثانوياً رغم سحقه ولم تتأثر خلاياه.

    وفي عام 1933م قام هذا العالم وعلماء آخرون بغلي المنظم الأولي وزراعته بعد غليه فشاهدوا أنه يؤدي إلى نمو محور جنين ثانوي بعد غليه ولم تتأثر خلاياه بالغليان، ولقد نال العالم الألماني (سبيمان) جائزة نوبل عام 1935م على اكتشافه للمنظم الأولي

    انظر: أول دليل مادي على البعث ويوم القيامة - عجائب وأسرار عجب الذنب - بحث للدكتور عثمان جيلان معجمي – طبيب يمني من صنعاء . - ملخص بحث ألقاه الدكتور عثمان جيلان في المؤتمر السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة الذي عقد في دبي. 2004-

    <https://sites.google.com/site/uelhkdghk/> -

    الجسد يبلى ما عدا عجب الذنب للدكتور زغلول النجار، نقلاً عن موقع: [www.elnaggarzr.com](http://www.elnaggarzr.com)

    <https://www.eajaz.org/index.php/component/content/article/86-Twenty-eighth-issue/800-Tailbone>

    الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

    . Larsen J. William. Human Embryology. Churchill Livingstone. 1st ed., 1993.

    . Moore L. Keith and Persaud T.V.N. Before we are born. Sanders Company.5th ed. 1998.

     . Sadler T.W. Langman’s Medical Embryology. Lippincott Williams & Wilkins. 8th ed., 2000. [↑](#footnote-ref-10)
11. ) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ج18 ص 173 [↑](#footnote-ref-11)
12. ) أي ليس فيها تشققات أو تصدعات، فهي قبة تحجز الأرض عما يضرها من الأشعة الكونية [↑](#footnote-ref-12)
13. ) وقد أثبت العلم هذه الحقيقة، فالقشرة الأرضية تطفو على بحر ملتهب من الحمم المنصهرة تبلغ حرارتها آلاف الدرجات المئوية.

    ويسمي العلماء الطبقة التي تلي القشرة الأرضية بنطاق الضعف الأرضي ويتألف من صخور منصهرة عالية الكثافة والحرارة والضغط تتولد فيه تيارات حرارية عنيفة تؤدي إلى تحرك أجزاء القشرة الأرضية وتبدو كأنها ستنقلب. ووجود الجبال على هذه القشرة له دور مهم في توازن القشرة الأرضية وجعلها أكثر استقراراً وانتظاماً في رحلة دورانها حول محورها

    بقلم عبد الدائم الكحيل <http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02->

    http://www.physicalgeography.net/fundamentals/10k.html

    http://www.seed.slb.com/en/scictr/watch/living\_planet/mountains.htm

    Underneath the mountains www.geology.wisc.edu

    http://maps.unomaha.edu/Maher/ESSlectures/ESSlabs/isostasylab/isostasy.html

    Tectonic Plates, National Science Digital Library.

    Inside the Earth, www.usgs.gov

    Structure of the Earth, www.nasa.gov [↑](#footnote-ref-13)
14. ) باعث على السرور بحسنه ونضارته – معجم ألفاظ القرآن الكريم 168 - [↑](#footnote-ref-14)
15. ) {النازعات27/29} [↑](#footnote-ref-15)
16. ) {نوح/19} [↑](#footnote-ref-16)
17. ) {البقرة/22} [↑](#footnote-ref-17)
18. ) رواه مسلم ج4 ص 475 رقم 1525 [↑](#footnote-ref-18)
19. ) شداد بسوقها استقامتها في الطول – يراجع في ذلك كذلك معجم ألفاظ القرآن الكريم ج 1 ص 101، بسق بسوقا: طال [↑](#footnote-ref-19)
20. ) قال القرطبي: نضيد: أي متراكب قد نضد بعضه على بعض وفي البخاري النضيد الكفري ما دام في أكمامه ومعناه منضود بعضه على بعض فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد [↑](#footnote-ref-20)
21. ) اختلف المفسرون في تحديد هوية أصحاب الرس، ولكنهم اتفقوا على أن «الرس» بئر عظيمة أو حفير كبير، قال ابن عباس، أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود، والرس بئر بأذربيجان، وقال القرطبي، إن «الرس» في كلام العرب هو البئر التي تكون غير مطوية أي غير مبنية، وقال عكرمة، الرس بئر دفنوا فيها نبيهم، وفي تفسير أبي السعود، أصحاب الرس هم قوم يعبدون الأصنام فبعث الله تعالى إليهم شعيباً فكذبوه، فبينما هم حول الرس إذ انهارت فخسف بهم وبديارهم. [↑](#footnote-ref-21)
22. ) أصحاب الأيكة إحدى قبائل العرب القديمة، ...، وأطلق عليهم هذا الاسم لأنّهم كانوا يعبدون شجر الأيك، وهو شجر ملتف على بعضه البعض، كما عرفوا بالغش في الأوزان، فبعث الله لهم النبي شعيب لهدايتهم، ولكنّهم لم يستجيبوا له.

    ذكر القرآن الكريم أنّ قوم مدين كانوا بالقرب من قوم ثمود، وأن الله بعث لهم النبي شعيب عليه السلام، وأن سيّدنا موسى لجأ إليهم وصاهرهم، وذكروا باسم قوم مدين، وأصحاب الأيكة في مواضع عديدة منها قوله تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)، وقوله تعالى: (وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ). [↑](#footnote-ref-22)
23. ) (تبع) كان قد عظم سلطانه وغزا بلاد العرب ودخل مكة ويثرب وبلغ العراق، ويقال: إنه الذي بنى مدينة الحيرة في العراق، وكانت دولة تبع في سنة ألف قبل البعثة المحمدية، وقيل كان في حدود السبعمائة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد نهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن سب (تبع) فقال: ( لَا تَسُبُّوا تُبَّعًا، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ أَسْلَمَ ) رواه أحمد في " المسند " (37/519) عن سهل بن سعد رضي الله عنه وقال المحققون: حسن لغيره، وحسنه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (2423) .

    و(تبع) لقب لمن يملك جميع بلاد اليمن حميرا وسبأ وحضرموت، فلا يطلق على الملك لقب تبع إلا إذا ملك هذه المواطن الثلاثة. وقال ابن كثير: وقد كانت حمير وهم سبأ كلما ملك فيهم رجل سموه تبعا، كما يقال كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافرا، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس. [↑](#footnote-ref-23)
24. ) يقول العلماء ( الوريد جزء من أجزاء الدماغ المهمة وله علاقة بالوعي واليقظة والأفعال الإرادية والغير إرادية وذو اتصال مباشر وغير مباشر مع معظم أجزاء الدماغ المختلفة، و جذع الدماغ Brain stem يعتبر وسيطا لربط نصفي كرة المخ مع النخاع الشركي فتظهر خواص الحبل فيه ومن ناحية أخرى فإنه الوريد الذي يورد أو عن طريقه ترد المعلومات من و إلى الدماغ، وعليه فإن كلمة وريد هي تبيان لتوريد المعلومات والحوافز الداخلة والخارجة من الدماغ،وإذا رجعنا إلى الآية الكريمة نجد أن السياق يدل على ارتباط الوسوسة مع حبل الوريد , إذ يوجد ارتباط مباشر بين ما يحدث الإنسان به نفسه،وبين ما يتحول من الأفكار والخواطر إلى أفعال إرادية وحركية وهذه الأفعال تكون ذات علاقة مباشرة وغير مباشرة مع جذع الدماغ، وقد أعلن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أنه يعلم الوسوسة في وقت حدوثها وكذلك قبل تحولها أو وصولها إلى جذع الدماغ حيث يكون التحول من النية إلى الفعل الحركي في بداياته فهو سبحانه وتعالى أقرب إلى الإنسان من هذه المرحلة)

    الأستاذ / محمد راتب النابلسي - خالد الجندي في ميزان العقل والنقل – المنتديات العلمية www.olom.info [↑](#footnote-ref-24)
25. ) رواه البخاري ج 1 ص 220 رقم 583 [↑](#footnote-ref-25)
26. ) رواه البخاري ج 5 ص 2253 رقم 5717 [↑](#footnote-ref-26)
27. ) رواه البخاري ج 5 ص 2020 رقم 4968 [↑](#footnote-ref-27)
28. ) رواه البخاري ج 5 ص 2380 رقم 6126 [↑](#footnote-ref-28)
29. ) رواه مسلم ج 1 ص 119 رقم 132 [↑](#footnote-ref-29)
30. ) رواه مسلم ج 1 ص 119 رقم 133 [↑](#footnote-ref-30)
31. ) رواه البخاري ج 1 ص 14 رقم 15 [↑](#footnote-ref-31)
32. ) مشكاة المصابيح ج 1 ص 36 رقم 167 - رجاله ثقات غير نعيم بن حماد ضعيف لكثرة خطئه وقد اتهمه بعضهم – ولذلك ضعف إسناده العلماء ومنهم العلامة الألباني، لكن متن الحديث يتفق مع الحديث السابق الإشارة إليه في صحيح البخاري ويعضده [↑](#footnote-ref-32)
33. ) رواه أحمد ج 1 ص 385 رقم 3648 وصححه الألباني انظر الجامع الصغير وزياداته ج1 ص 1074 رقم 10739 [↑](#footnote-ref-33)
34. ) رواه الترمذي ج5 ص 11 رقم 2616 وصححه الألباني [↑](#footnote-ref-34)
35. ) رواه البخاري ج 5 ص 2377 رقم 6113 [↑](#footnote-ref-35)
36. ) رواه ابن ماجة في سننه ج4 ص 385 رقم 1442 وصححه الألباني: صحيح ابن ماجة ج1 ص 245 رقم 1188 [↑](#footnote-ref-36)
37. ) الشرح المختصر على بلوغ المرام ج4 ص 9 [↑](#footnote-ref-37)
38. ) تحفة الأحوذي ج4 ص 49 [↑](#footnote-ref-38)
39. ) معجم ألفاظ القرآن الكريم ص 579 [↑](#footnote-ref-39)
40. ) رواه البخاري ج 1 ص 243 رقم 655 [↑](#footnote-ref-40)
41. ) رواه البخاري ج 4 ص 1616 رقم 4184 [↑](#footnote-ref-41)
42. ) العرف الشذي للكشميري ج2 ص 406 [↑](#footnote-ref-42)
43. ) المرجع السابق ص 407 [↑](#footnote-ref-43)
44. ) الألوسي ج19 ص 327 [↑](#footnote-ref-44)
45. ) رواه الترمذي ج 11 ص 37 رقم 3166 وصححه الألباني: صحيح الترمذي ج3 ص 100 رقم 2585 [↑](#footnote-ref-45)
46. ) رواه أحمد ج 1 ص 385 رقم 3648 وصححه الألباني انظر الجامع الصغير وزياداته ج1 ص 1074 رقم 10739 [↑](#footnote-ref-46)
47. ) رواه مسلم ج 4 ص 1990 رقم 2569 [↑](#footnote-ref-47)
48. ) رواه مسلم ج 4 ص 2167 رقم 2814 [↑](#footnote-ref-48)
49. ) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - تفسير أبو المسعود ج6ص 197 [↑](#footnote-ref-49)
50. ) رواه أبو داود ج 2 ص 641 رقم 4713 وصححه الألباني – ومثل هذه الرواية عند مسلم ج 4 ص 2050 رقم 2662 [↑](#footnote-ref-50)
51. ) رواه مسلم ج 4 ص 1994 رقم 2577 [↑](#footnote-ref-51)
52. ) رواه البخاري ج 5 ص 2236 رقم 5654 [↑](#footnote-ref-52)
53. ) رواه مسلم ج 4 ص 2108 رقم 2753 [↑](#footnote-ref-53)
54. ) رواه البخاري ج 5 ص 2235 رقم 5653 [↑](#footnote-ref-54)
55. ) رواه البخاري ج 6 ص 2711 رقم 7011 [↑](#footnote-ref-55)
56. ) رواه مسلم ج 4 ص 2187 رقم 2848 [↑](#footnote-ref-56)
57. ) رواه مسلم ج 4 ص 2199 رقم 2866 [↑](#footnote-ref-57)
58. ) رواه البخاري ج 1 ص 448 رقم 1273 [↑](#footnote-ref-58)
59. ) رواه الترمذي ج 4 ص 633 رقم 2450 وصححه الألباني [↑](#footnote-ref-59)
60. ) رواه مسلم ج 1 ص 186 رقم 195 [↑](#footnote-ref-60)
61. ) رواه البخاري ج22 ص 424 رقم 6866 [↑](#footnote-ref-61)
62. ) رواه الترمذي ج11 ص 448 رقم 3463، وصححه الألباني: صحيح الترمذي ج 3 ص 175 رقم 2805 [↑](#footnote-ref-62)
63. ) رواه الترمذي ج 5 ص 11 رقم 2616 وصححه الألباني [↑](#footnote-ref-63)
64. ) رواه الترمذي ج 4 ص 171 رقم 1633 وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن الترمذي رقم 1633 ج4 ص 133 [↑](#footnote-ref-64)
65. ) عبد الله الأنصاري الهروي – منازل السائرين ج 1 ص 17 – لناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، 1408 - 1988 [↑](#footnote-ref-65)
66. ) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) ج4 ص 221 . [↑](#footnote-ref-66)
67. ) رواه البخاري ج 20 ص 224 رقم 6075 [↑](#footnote-ref-67)
68. ) رواه مسلم ج1 ص 427 رقم 269 [↑](#footnote-ref-68)
69. ) أبو حفص سراج الدين الدمشقي: اللباب في علوم الكتاب ج14 ص 360 [↑](#footnote-ref-69)
70. ) البحر المديد ج6 ص 135 [↑](#footnote-ref-70)
71. ) التحرير والتنوير ج26 ص 267 [↑](#footnote-ref-71)
72. ) أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي: بحر العلوم ج4 ص 190 [↑](#footnote-ref-72)
73. ) تفسير الطبري ج22 ص 366 وقريب منه تفسير ابن كثير [↑](#footnote-ref-73)
74. ) رواه مسلم ج13 ص 472 رقم 5066 [↑](#footnote-ref-74)
75. ) رواه البخاري ج11 ص 22 رقم 3005 [↑](#footnote-ref-75)
76. ) رواه مسلم ج1 ص 437 رقم 276 [↑](#footnote-ref-76)
77. ) محمد أمين الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج7 ص 431 [↑](#footnote-ref-77)
78. ) رواه مسلم ج1 ص 423 رقم 266 [↑](#footnote-ref-78)
79. ) رواه البخاري ج20 ص 216 رقم 6067 [↑](#footnote-ref-79)
80. ) قال الزجاج: أي ساروا في الانقاب حتى لزمهم الوصف به ) مُشَدَّداً يقول خَرَقُوا البلادَ فساروا فيها طَلَباً للمَهْرَبِ فهل كان لهم محيصٌ من الموت ؟ النَّقْبُ الثَّقْبُ في أَيِّ شيءٍ كان نَقَبه يَنْقُبه - لسان العرب ج 1 ص 765 [↑](#footnote-ref-80)
81. ) رواه ابن ماجة ج2 ص 1350 والبخاري في الأدب المفرد ج 1 ص 170 رقم 484 وغيرهم [↑](#footnote-ref-81)
82. ) رواه الترمذي ج4 ص 495 رقم 2212 وصححه الألباني [↑](#footnote-ref-82)
83. ) رواه مسلم ج 4 ص 2149 رقم 2789 [↑](#footnote-ref-83)
84. ) رواه البخاري ج 2 ص 1046 رقم 2691 [↑](#footnote-ref-84)
85. ) أحمد بن علي بن ثابت الرفاعي الحسيني - البرهان المؤيد ج 1 ص 141 - لناشر: دار الكتاب النفيس – بيروت 1408 هـ [↑](#footnote-ref-85)
86. ) رواه البخاري ج 5 ص 2373 رقم 6099 [↑](#footnote-ref-86)
87. ) معجم ألفاظ القرآن الكريم ج 1 ص 123 [↑](#footnote-ref-87)
88. ) معجم ألفاظ القرآن الكريم ج 1 ص 42 [↑](#footnote-ref-88)
89. ) تفسير ابن عجيبة ج6 ص 139، الإمام البقاعي ج8 ص 190 [↑](#footnote-ref-89)
90. ) رواه مسلم ج 4 ص 1789 رقم 2284 [↑](#footnote-ref-90)
91. ) رواه البخاري ج 4 ص 1881 رقم 4651 [↑](#footnote-ref-91)
92. ) رواه البخاري ج 3 ص 1283 رقم 3294 [↑](#footnote-ref-92)
93. ) رواه البخاري ج 3 ص 1275 رقم 3274 [↑](#footnote-ref-93)
94. ) رواه البخاري ج 2 ص 789 رقم 2142 [↑](#footnote-ref-94)